قراءة مسافر
في شعر
سُعاد الصَّبّاح

تأليف
د.
محمّد التونجي

منشورات شركة النور
الطبعة الثانية ١٩٨٧

قراءة مسافر

في شعر

سعاد الصباح

قراءة مسافر
في شعر
سعاد الصباح

تأليف
د. محمد التونجي
استاذ الأدب العربي
جامعة حلب

منشورات شركة النور
الطبعة الثانية
الكويت ١٩٨٧

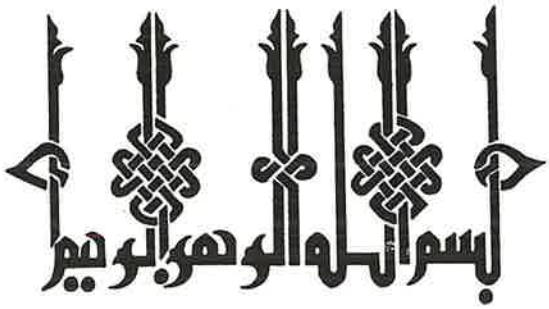
بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الشاعرة الصَّناع

تسعون يوماً أمضيتها في ربوع الكويت (شتاء ٨٦ ـ ٨٧) ولم أرها. لم أرها ولكنني عرفتُها. كنت أسمع صوتها في العمل، وأشاهدها في الشارع، في الجامعة، في المنزل.

كنت أراها حائرة، قلقة، ثائرة، قدماً في طلب الحرية، وقدماً في أغلال التقاليد والعبودية.

كنت أراها صرخةَ الحق في مَتاهات الباطل، نداءَ المساواة أمام الله العادل.

كنت أراها ورثت المجد والفَخار، واعتزت بما تعتز به كل امرأة عربية كويتية.. ورفضت كل غريب يحاول تدنيس ذيل رمالهاالخليجية.

عرفتها عربيةً تطالب بالحرية، وتسخر من الطائفية التي تَبذرها الأيدي الغاشمة لتفرق الأمة العربية. وهي تعلم أن الطائفية داء عضال للفُرقة والشتات:

بأيِّ الشرائع هُمْ يَحكمونَ ... ويَلهونَ بالقيم الراسيَهْ؟
أما وَّحدتْنا دماءُ العروبةِ ... والملَّة السمحةُ الهاديَهْ؟
فكيف يعودون للمذهبيَّةِ ... وهْي الوقيعةُ والداهيَهْ؟

لم أرها..

ولكن عرفتُها أبيةً، ذات نفس شفافة هفهافة، كالزجاج كَسَرها لاينجبر. وقد أجادت إذ شبَّهت عنفوانها وإباءها بالجواد العربي. والجواد رمز للعربي الأبيِّ الذي يطيعك إن لاينْتَه، ويعتو إن عاندتَه:

إنَّ في قلبي جواداً عربيّا ... عاش طولَ العمر في الحبِّ أبيًّا
فإذا عاندتَه ألفيتَهُ ... ثار كالمارد جبَّارا عتيًّا
وإذا لاينتَهُ ألفيتَهُ ... باتَ كالطفل رقيقاً وحييًّا

لم أرها..

ولكن عرفتها، لها ذاتيتُها، ومبدؤها، وتميُّزها، وزهوُّها. زهوُّها؟ إنه محور حياة شاعرتنا. فهي لاتنسى كبرياءها ثائرةً أو عاشقة. إنها تحيا في صراع بين أمانيِّ كل امرأة، وكبرياء يداهمها فيُلهب عنفوانهَا. وهنا تبرز الشاعرة الرصينة:

أنا لا أطمعُ فيما يبتغيهِ الناسُ طُرّا
أنا أحيا في صراعٍ من دَمي تيهاً وكِبْرا

لم تتملَّق أحداً، ولم تمدح أحداً. وترفض أن يوجد شعر الارتزاق على خارطة الشعر. هي لم تمدح ليس لأنها شيخة بنت شيخ كأبي فراس، ولكنها عرفت أن للشعر المعاصر ميداناً غير ميدان الشحاذة.

لم أرها..

ولكن عرفتُها، وكلُّ أملها أن تمنح الحنان والحب والحرية. فإن تحقق لها هذا الحلم كانت مثالَ الأنثى الأنيسة المطيعة، التي تمنح رجلها أعز ماتملك؛ شَعرها وشِعرها:

وأنا أغزلُ شَعري بردةً تبعث الدفءَ حواليك شَهيًّا
وأحيِّيك بشِعري نغماً رائقَ الأوتار سلسالاً شجيًّا

وإياك أن تعاندها، فماهي «هَينون كينون»، بل هي شمشونُ يدمرُ الحياة عليها وعليك. وهذا غاية في الزهو والكبرياء:

لاتعانِدْني فأغدو حُمَماً تهدِمُ الدنيا عليك.. وعليّا
لا أُبالي إن تحطَّمتَ معي ودفنَّا قصة الحب سَويًّا
فحنانَيك.. وحاذرْ غضبتي إنّ في قلبي جَواداً عربيًّا

لم أرها..

ولكن عرفتها تطالب الرجال بإعادة أمجاد وطنها وتحثُّهم على الاعتزاز بالعادات العربية الأصيلة:

أعيدوا لنا ذكرَ تلك الليالي وكفُّوا عن اللهجة الجافيَهْ
فنحنُ رضعنا لِبانَ الخليجِ وعشنا على هذه البادِيَهْ

وتفتخر بوطنها الكويت، والذي تراه درَّة يزدان بها جبين الخليج الأغرِّ. وتُثير الهمم الفتية للحفاظ عليه من قوى البغي والعدوان :

فصونوهُ من عثرات النفوسِ ومن طمعِ الفئةِ الباغيَهْ

وتذكِّرهم بكل فلذة جريحة من أجزاء وطنها الكبير. فهاهو لبنانُ آخر جرحى الوطن، وأشدُّه إيلاماً. وما أشأمَ الطائفيةَ التي تعيث فيه فساداً :

فمأساةُ لبنانَ لمَّا تزلْ تلوحُ بألوانها القانيَهْ
فإياكَ إياكَ أن يخدعوكَ وأنْ يدفعوك إلى الهاويَهْ
لم أرها. .

ولكن عرفتها صاحبةَ أول ديوان شعر لامرأة، وصاحبة أول أمسية شعرية في الكويت، وصاحبة أجرأ صوت عربي في الخليج. قد تبنَّت في كل شعرها قول الحقيقة عن نفسها، وعن مجتمعها، وعن وطنها وإن كانت مُرة. ومن يجرؤ اليوم على قول الحقيقة؟

وهاجت النفوس المريضة لثورتها، وصراحتها، وجرأتها، وشاعريتها الحديثة. . ولأنها أنثى ولا كالرجال في صمودها هاجت النفوس، وتلقتها ألسن المعارضة. ومن البديهي أن تلقى كلُّ نهضة عناداً من فئة، وأن يلقي كل صوت جَموح محاولات مغرَّضة لإسكاته. ولو لم يكن شعرها قوياً، ولو لم يكن صوتها مدوياً لما ثبتت أمام المعارضة. ولو لم تكن شاعريتها راسخة لما استمرت ، ولو لم يكن عنادها فولاذياً لاسترخت.

ثارت جبهة المعارضة والرفض، وسلاحها التقاليد والأعراف، والكلاسيكية الشعرية، واستصغار العنصر الأنثوي، ومجابهة ما تدعو إليه. ولهذا تصف الشاعرة سعاد الشعر بأنه «مواجهة بالسلاح الأبيض، ومعركة من أجل التغيير ومشي على سطح من الصفيح الساخن».

ولايعرف الشوقَ إلا من يكابده. فنحن، معاشرَ أصحاب القلم، لاترهبنا الأصوات النَّشاز ، ولاهمسات الحسد. وتقول: «أنا لا أفكر مطلقاً بمن يزرعون في طريقي المسامير، أو بمن يغرزون أسنانهم في لحمي». وكلي ثقة أنها تدفعنا

إلى الاستمرار، وتمنحنا قوة للعطاء والاستكثار. وتؤكد لنا وللعالم أن عندنا شيئاً يثير مافي النفوس المريضة. فلنسر غير عابئين بمن يلهثون خلفنا.

ولقد استطاعت الشاعرة سعاد الصباح ان تحفر بريشتها الحريرية آراءها على التقاليد الصلبة، وتوجه أنظار العشاق والمعارضين على السواء إلى نتاجها المعطاء، يُثبت ذلك سرعة انتشار دواوينها، وتكرر طبعاتها. والأديب المبدع هو الذي يكسر القيود ويحطم الأسوار. وتقول سعاد في هذا الصدد: «وفي العالم الثالث ـ الذي ولدنا فيه، وسنموت فيه ـ تصبح كتابة الشعر جنوناً وعملاً انتحارياً، لأن الشاعر لكي يقطع النهر الكبير عليه أن يواجه ألوف التماسيح المتربصة وألوف التيارات المائية التي تبتلع الإنسان، وتشدُّه إلى القاع».

وآن لي أن أعرفها، وأن أعرِّف بها:

فهي سعاد بنت محمد الصباح، من مواليد الكويت بتاريخ آيار (مايو) ١٩٤٢. أتمت بكالوريوس الاقتصاد من القاهرة، ثم تابعت تحصيلها العالي في إنكلترة، حيث حازت درجة الدكتوراه في الاقتصاد عام ١٩٨١. وأجادت اللغتين الفرنسية والإنكليزية، إضافة إلى نصاعة اللغة العربية، وانصياعها بين أناملها كاتبةً وشاعرة.

واستهواها علم الاقتصاد فاتخذته دَيدَنها واختطَّته ميدانها المفروض عليها لأداء واجبها نحو وطنها. وعلم الاقتصاد علم يمس أهم احتياجات الوطن، ويعالج أبرز قضايا الإنسان. فأسهمت في عدد من الدراسات، راعت فيها وضع بلادها النفطي، ووضع الاقتصاد العربي الخليجي، فكتبت «الكويت، أضواء على الاقتصاد الكويتي» (عام ١٩٨٥)، و«السوق النفطي الجديد. السعودية تسترد زمام المبادرة» (عام ١٩٨٦)، و«أوبك بين تجاوب الماضي وملامح المستقبل» (عام ١٩٨٦)، و«أزمة الموارد في الوطن العربي» (عام ١٩٨٧).

ولم تنس أن تقف الى جانب المرأة الخليجية نثراً ـ كما سنراها وقفت معها شعراً ـ فكتبت «التخطيط والتنمية في الاقتصاد الكويتي ودور المرأة» (عام ١٩٨٣)، و«المرأة الخليجية ومشاركتها في القوى العاملة» (عام ١٩٨٧).

إلى غير ذلك من الدراسات الاقتصادية والمحاضرات والمقالات وورقات المؤتمرات التي أثبتت فيها دور المرأة العربية المثقفة ثقافة علمية اقتصادية عالية.

فما علاقة هذه الاقتصادية الدَّولية بالشعر؟

ومن قال إن المرأة لم تكن شاعرة؟ وهل نسينا الخنساء، وليلى الأخيلية، ونازك، وهند هارون؟

ومن قال ـ كذلك ـ إن محراب الشعر دونه شَوك القَتاد على العلماء؟ وهل نسينا الشافعي، وابن سينا، وعمر الخيام؟ بل هل نسينا! إبراهيم طوقان، وناجي، وعلي محمود طه؟

الشعر موهبة تسري في دم الإنسان الشاعر، درسَ أم لم يدرس، أو مهما كان نوع دراسته. نحن نعلم أن بعض العلماء يقرضون الشعر (وانظر طبقات ابن أبي أصيبعة)، ولكن شعرهم يبقى ـ شعر العلماء او شعر الفقهاء ـ دون شعر الشعراء. أو أننا نرى شعراء طغى فنهم الإبداعي على علمهم، فتُنسينا شاعريتهم ومايقرضون مجالاتهم العلمية وما يُبدعون.

ومادامت هذه الشخصية مطرح الدراسة، فلنتساءل عن دورها في العلم والشعر؟ وما مقام هذا من هذا عندها؟

إن من يقرأ لها مقالاً أو بحثاً اقتصادياً يكبر فيها أهليتها وتجاوبها مع هذا العلم التطوري. ومن يقرأ شيئاً من شعرها لايشتمُّ منه رائحة العلمية من قريب أو من بعيد. وهذا يعني أنها شاعرة شاعرة.

نعم، قالت الشعر ـ قبل الإقتصاد ـ وهي في ريعان الصبا. ودفعها طموحها الإبداعي الى طبع باكورة دواوينها ولما تبلغ الثانية والعشرين ـ أي قبل تخرجها ـ، وأسمته «من عمري»، وضم مجموعة من قصائدها لملمتْها وقدمتها قنبلة شعرية في الخليج عام ١٩٦٤.

ثم توقف بها عطاء النشر سبع سنوات لتنشر عام ١٩٧١ ديوانها الثاني وأسمته على اسم ابنتها «أُمنية». وقد لقي هذا الديوان شهرة لدى قراء العربية

ومحبي الشعر الأنثوي الصريح، فطبعته ثلاثة طبعات، كان آخرها عام ١٩٨٥.

وتوقفت سعاد عن النشر، من غير أن تتوقف عن العطاء، إحدى عشرة سنة؛ نُكبت في هذه الحقبة ببكرها «مبارك»، فسكتت عن الصدح سنتين. حتى إذا انفرجت أسارير شاعريتها جمعت ماقالته في فِلذة كبدها ومُزعة أحشائها بديوان «إليك ياولدي»، ونشرته عام ١٩٨٢. ثم أعادت طبعه عام ١٩٨٥. لكنها لم تخصَّه كله في إبنها ـ وليتها فعلتْ ـ فقد ختمته بثلاث قصائد وطنية.

حتى إذا أزف عام ١٩٨٦ ولد لها ديوانها الرابع (الأخير) وكان بعنوان «فتافيت امرأة»، أدرجت فيه ثماني عشرة قصيدة وطنية واجتماعية ورمزية. ودواوينها كلها من القطع الصغير، والطبع الأنيق.

وميزة هذه الشاعرة أنك تستطيع أن تفهمها من غير تسلسل زمني في قراءتك. فأنت قادر على معرفتها بديوان، كما أنك قادر على معرفتها بالأربعة جميعاً. ثم أنت لاتحتاج إلى تسلسل زمني لتفهم مقاصدها وأهدافها. فابدأ قراءتك بأي ديوان شئت تعرف اتجاهها الشعري العام، وتعرف من هي سعاد الصباح.

وبعد،

فهذه الشاعرة رائدة الشعر الحر والفكر الحر في الخليج العربي الهادر. وهذه هي المرأة العالمة المثقفة التي جابت الأمصار، وطافت البلدان، وعبَّأت الأذهان، ونبهت الآذان إلى حاجات العصر العربية نثراً وشعراً.

ويمكننا أن نستعرض شعرها وشاعريتها من بعض ميزات وخصائص، مشفوعةً بثلاثة محاور:

المحور الوطني

المحور الاجتماعي

المحور الوجداني

حلب (سوريا) ١٩٨٧/٢/٢٨ — **محمد ألتونجي**

المحور الوطني

الوطن الصغير

شاعرة عربية صدَّاحة، شربت لبن النوق، واستافت شَمم الكثبان، وآخت الرجال النَّشامى والركبان. عطاؤها نحو كويتها انسياب يُشعر بأَرْيحية العاطفة، وصدق الصورة والتعبير. هدفها الحرية والعدل والمساواة، ومبدؤها الوطن، كلُّ الوطن صغيراً أو كبيراً.

وأحاسيسها نحو الكويت أحاسيس كل عربي صادق يتمنى لأرضه الحرية والسعادة. وأنت حين تقرأ شعرها نحو بلدها تُحس بأنها تذوب به وجداً، وتحرسه غَيرةً، وكأنها عاشقة لأرضه الصامدة العريقة:

كويتُ ، كويتْ
موانىء أبحرَ منها الزمانْ
وواحةُ حبٍ ، وبرُّ أمانْ
وشعبٌ عظيمْ

هذا الوطن المفدَّى يسري حبه في عروقها وعروق أبنائها. إنه شواطىء آمِنَةٌ وجذور وعادات وأمن واستقرار:

كويتُ ، كويتْ
شواطئءُ مصقولةٌ كالمرايا
وبحرٌ يوزِّع كلَّ صباح علينا
ألوفَ الهدايا
وشايُ أبي
وابتسامة أمي
ومحفظتي وجديلةُ شعري

وتُشيد الشاعرة بحرية الكلمة والتعبير وعمق العروبة في الكويت، حتى غدا وطنها (الصغير) ملاذَ المثقفين وملجأ الأحرار، يرومون فيه البَوح والصَّدح:

ويُسعدني أن تظلَّ بلادي
ملاذَ العصافير من كلِّ جنسٍ
وبيتَ المغنينَ والشعراءْ..
ويسعدني أن يكونَ ترابُ بلادي
مزارَ البنفسج والشهداءْ
وسقفاً ، لمن تركتْهم حروبُ العروبة دونَ غطاءْ.

لماذا؟ لأن ماضيها عريق، وبحرها طليق، خرج منه السندباد، وحط ابن ماجد رحاله على موانئها. الكويت حكايات، ومعرفة ، وأدب..

كويتُ ، كويتْ
هنا.. ابتدأتْ رحلةُ السندبادْ
هنا.. وردةُ البحرِ قد أزهرتْ
وراح ابنُ ماجد
يقطف نجماً.. ويزرع نخلاً..

ومن كانت هذه بلادهم حريٌّ بهم أن يتوحَّدوا، ويحافظوا على تراثهم، ويوقظوا همم رجالهم. وتطالبهم الشاعرة بأن يدَعوا البريق الخلَّب:

ياشبابي ، إنَّ فيكم كلَّ آمالي الرفيعَهْ
وبلادي بين أيديكم تراثٌ ووديعَهْ
اطْرحوا كلَّ بريقٍ وتناسَوْا كلَّ زينَهْ
واجعلوا أيديَكُم دِرعاً على الحق أمينَهْ

ويرتكز المحورُ الوطني على قضية النِّفط ، وتراها الشاعرةُ مشكلة كل دولة اكتشف البترول في أرضها، فتوافدت عليها حشود الغرباء من الأجانب تبغي امتصاص رحيق أرضها:

غرباءُ الأرضِ أغراهمْ بريقُ الذهبِ
فاسْتباحوا دونَ حقٍّ أرضَ أمي وأبي

ولم يكفِ هذا التدخلِ الأرعن، بل إن اكتشافه غيَّر كثيراً من الأخلاق والنفوس. فنراها تتوقف كثيراً عند أثر النفط في نفوس الشعب. وتتألم لما اعترى الناس من جرَّاء هذا الذهب الأسود، حيث غيَّر الطباع، وبدَّل الأخلاق، ونسي الناس دينهم وجهادهم وتقاليدهم التي ورثوها :

في بلادي، في مَغاني أرضِ اجدادي الجميلهْ
في البوادي.. بعد أجيال من الصفوِ طويلهْ

* *

ذات يوم .. هبط الساحرُ من ماءِ السماءْ
فكسا بالذهبِ الأسودِ أرضَ الصحراءْ

* *

ورآه القومُ .. واستغرقهم هذا البريقْ
فتناسَوا أنهم جاؤوا من البيت العتيقْ

وقد استنتجت سعاد ـ من دراساتها الاقتصادية والبترولية ـ «أن الثروة التي تنبع مصادفةً من تحت الأرض لاتلبث أن تبتلعها الأرض.. إلا أن مستقبل الإنسان وتقدمه لايأتيان من المصادفات، وإنما يأتيان من البحوث والاكتشافات، والدخول في سباق مستمر مع الزمن».

والذهب الأسود داء يولِّد الكسل والخنوع، ويطبِّع النفوس بالخبث والرياء. وليس لها بعد هذا إلا البكاء:

ذابتِ الأحلام والآمالُ في الدمع السخينِ
وجرى الدمعُ دماً يبكي على الحقِّ السجينِ

ومن شدة آلام الشاعرة حيال هذا التحول الأخلاقي تعمد إلى تذكير أبناء بلادها بجدودهم الذين تعبوا وأرِقوا ليرسِّخوا دعائم وطنهم :

يالأجدادي .. وكم أودى بهم طولُ الطريقْ
في سبيل المجدِ ، مابينَ شهيدٍ وغريقْ

وتطيب لها ذكريات الماضي العريق، وكأنها تستشفُّ منها عوناً على التمكُّن من

تغيير دفة السفينة الهوجاء. فتحكي لهم كم عانوا في التقاط اللؤلؤ وقطف المرجان من الأعماق :

يالهُمْ، واللؤلؤُ المكنونُ في جَوف البحارْ
لم يزلْ يسأل عنهم كلَّ ليلٍ ونهارْ

وتكرِّر المشهد بعد سنين، بعد أن رأت الشاعرة أن شعبها الخليجي مازال سائحاً بأخلاقه مع انسياح النفط. وتأسف على أجدادها البحارين الذين جابوا بقاع الأرض :

إنني بنتُ الكويت
بنت هذا الشاطىء النائم فوق الرمل ،
كالظبي الجميلْ
في عيوني تتلاقى
أنجمُ الليل وأشجارُ النخيلْ
من هنا.. أبحرَ أجدادي جميعاً
ثم عادوا.. يحملونَ المستحيلْ..

لكنهم استرخَوا، ونسوا الصراع في سبيل الحياة الفُضلى. وتبدع الشاعرة في صرختها المدوِّية، «ثم حلت لعنة النفط علينا». لأنها أيقنت أن ما أتاهم من غير عناء أورثهم الشقاء:

ثم حلَّت لعنةُ النفطِ علينا
فاستبحْنا كلَّ ماليسَ يُباحْ
فالبساتينُ فراشٌ للهوى
والنساءُ الأجنبياتُ..
يعطِّرن لياليا الملاحْ
هكذا ياوطني
ترفع راياتُ الكفاحْ!!

وتستنكر الشاعرة ماتراه! فلقد غربت الصورة الوضّاءة للوطن عن مخيلتها، فلم تعد مشرِّفة. وتتساءل عن هذا الوطن، أهو هذا السوق التجاري؟ أم هو المعاملة التجارية المغشوشة؟ أم هو القابعُ في متاهات القمار؟

وتتأجج ثورتها، فتهدر أمام هذا التحول المرير لشعب كاد يضيع المصير، بعد أن فقد الرجولة، ولم يُخلِّف سوى الخداع والتجارة الخاسرة. وتزداد ثورتها إذ ترى أرض النفط غافية على فرش ذهبية وثيرة، وقد تشرَّبت البترول فاسترخت في قصورة مُنهكة. وحين ترى أن الأرض لاتستجيب لها تصرخ صرخة مدوية تُحمد عليها:

إنني أرفضُ أن أعتبرَ النفطَ قدرْ..
فأنا لا أعبدُ النارَ..
ولا أرمي بأطفالي طعاماً للَّهبْ

وبعد أن تستعرض الشاعرة تساؤل الهاتف من قاع البحر، وهو يقرع ذلك المتناسي والمهمل تعود لتقول، والحُرقة تفتّت كبدها على ضياع الحياة الحرة الهنيئة:

هكذا ينتحرُ الخيرُ وتبقَى الذكرياتْ
يازمانَ اللؤلؤ الحرِّ .. زمانُ الحرِّفاتْ

وأين هي الحرية الفردية في عالمها العربي؟ أين هي الإنسانية العريقة؟ لقد استؤصلت جذورها من أرض الحرية، ونبتت في أصقاع أخرى. وغُرست البغضاء مكان الحرية، ونشرت الإذاعات العربية طعومها المسمومة:

كلما شاهدتُ عصفوراً بروما
أو بباريس.. يغنِّي
دونَ أن يشعر بالخوف.. بكيتْ
كلما شاهدتُ طفلاً عربياً
يشرب البغضاءَ من ثدْي الإذاعات
بكيتْ..

الوطن الكبير

وتُجيل الشاعرة ببصرها لترى شعبها الخليجي بحاجة إلى أن يستعيد هُويته العربية، ويدافع عن دم العرب، ويشارك إخوانه في المصير. وها هي ذي لبنان ذبيحةُ التفرقة، تمدُّ يدها الملطخة بالدم ، وتستجير :

أُخرجي من نشرة العملات . . والأسهمِ . .
وانضمّي إلى جيش العربْ
إن في لبنانَ أطفالاً يموتونَ . .
وعرضاً يُغتصبْ . .
اغضبي أيتها الأرضُ،
فإنَّ الأرضَ لايفلحها إلا الغضب . .

لكن بصيرتها تُلهمها أن زيداً ليس أفضل من عَمروٍ. فالعرب أجمعون متناحرون، وها هو ذا تاريخهم يسجل تفرقهم، بدءاً من وفاة رسول الله (ص) فترثي لحالهم:

إنني بنتُ الكويتْ
كلما مرَّ ببالي عربُ اليوم بكيتْ
كلما فكرتُ في حال قريشٍ ،
بعد أن ماتَ رسولُ الله،
خانتْني دموعي فبكيتْ.

فؤاد العرب :

إن مِساحة الوطن العربي لم تتغير، وخارطته هي هي . لكن روح التفرقة والقهر التي يحياها العرب مؤلمة. وفلسطين هذا الفؤاد الكليم لايجد عربياً واحداً

ينصره أو يغذيه بدمه قبل أن يفارق الحياة. إنه لايحيا إلا بدم عربي نقي، وأين هذا الدمُ إذا كانت الشعوب متفرقة متناحرة؟ فتعرض الشاعرة آلام هذا الفؤاد عرضاً تاريخياً وطنياً مؤثراً رمزياً:

كلما أبصرتُ في الحلم صلاحَ الدين..
يستجدي فُتاتَ الخبز في القدس،
ويستعطي على باب السيوف العربيةْ
كلما شاهدتُه..
تائهاً، يسأل الصحراء عن أحياء طي،
وتميمٍ، وغُزيَّةْ..
كلما شاهدتُه في مركز البوليس،
مَرمياً على الحائط من غير كفيلٍ أو هُويَّةْ
صحتُ من أعماق جُرحي:
أيُّها العصرُ الشعوبي الذي
صار فيه السيفُ يحتاج لإبراز الهويَّةْ..

وفلسطين.. جانب من شعور كل عربي، وفصل في ديوان كل شاعر. وها هي ذي شاعرتنا ترفع صيحتها العربية في وجه الصهاينة:

أجِّجوا الحقدَ أيها الأشقياءُ لم تمُتْ في عروقنا الكبرياءُ
من حَنايا عُروبتي رَضع المجدُ وكان العُلا وهانَ الفداءُ

وهي تتمثل فلسطين في شخصها، وتتحدث عن لِداتها الأبطال، وجدودها الأشاوس. ثم تخاطب اليهود مستنكرة أصولهم المزعومة وجذورهم الواهية:

هؤلاء الكرامُ قَومي، فقولوا: مَن همُو قومكم؟ ومن أينَ جاؤوا؟
مَن أبوكم؟ مَن أمكُم؟ مَن ذَووكم؟ أين تاريخكم؟ وأين البناءُ؟

وتوجه الشاعرة نظرتها السياسية نحو أساس القضية؛ فإسرائيل ربيبة الولايات المتحدة التي خذلت أمماً واستباحت أعراضاً. وهي التي دمَّرت فييتنام، وأهانت سود أمريكة. ولما كانت إسرائيل ربيبتها، فإن الابنة ترث أمها في عاداتها وتقاليدها:

يـابـلادَ الـهـوانِ، يـا أمَّ صهـيـون وبـالأمِّ يُـعـرف الأبـنـاءُ
يـابـلادَ الـمـهـاجـريـنَ ، ومـنـهُـم جـاءَنـا الـضـائـعـونَ والـدَّهـمـاءُ

فلُمامة الشعوب أرسلت من عندها شرذمة طاغية تعيث في مقدسات فلسطين، وما شيءٌ أقدسُ من ولادة المسيح ومن محط الإسراء :

زَيـنُ أيـامـهـا بِـشـارةُ عـيـسـى ومـصـابـيـحُ لـيـلـهـا الإسـراءُ
غـالَهـا حـارقـو المسـاجـد غَـدراً فـاتـركي العـرقَ وانفِـري يـادمـاءُ
غـالـهـا سـارقـو الكـنـائسِ جهـراً فـدعِ الـصـمـتَ وانـتـفضْ يـا إبـاءُ

العـــراق البطـــل

عراقُ.. عراقْ..
إذا ماذكرتُك أورقَ في شفتي الشجرْ
فكيف سألغي شُعوري؟
وحبُّك مثلُ القضاء..
ومثلُ القدرْ..

تعتقد الشاعرة أن الحرب الطاحنة التي تجري الآن بين الجارتين العراق وإيران افتعلها الغرب ليؤكل في المِنطقة أخضرُها ويابسها، ولتتوقف المنطقة عن النَّماء والحضارة والعطاء. وتقول: «إنها حرب مقصدها الأخير إنهاء الحياة والأحياء في هذه المنطقة الغنية من العالم، وإعادة عقارب الساعة الى العصر الحجري».

إنها تحب العراق.. ومَن منا لايحب وطنه العربي الكبير بكل أجزائه؟ وهي ترى أن العراق كان يمثل طموحات قومية واقتصادية وتكنولوجية وحضارية أقلقت بال الدول الأوروبية والولايات المتحدة، ولاسيما إسرائيل. إسرائيل التي تعتبر أن ولادة أي قوة عربية في المنطقة تهديد لأمنها القومي. وترى هذه العدوة:

أنَّ كل نهضة عربية يجب أن تُوقف.
أن كل وحدة عربية يجب أن تُجهض.
أن كل ثروة عربية يجب أن تحرق.
أن كل تقارب عربي يجب أن يفشل.
أن كل رأس عربي يجب أن يُقطع.

وكنا نتمنى على الشاعرة ـ وقد أدركت مآرب الغرب ـ أن تنظم قصائد إنسانية تستنكر فيها هدر الدماء، وتحض بها على الإخاء والسلام. وها هو ذا زهير بن أبي سلمى نظم معلقته في الحث على إنهاء الحرب التي لاينجم عنها سوى اليُتم والدمار.

وجهزت سعاد جيش شعرها، ووجَّهته نحو حدود العراق، ليقف فَيلقاً من فيالق البطولة والنصر. ونظمت في بطولة العراق قصائد خالدة، ولعل من أبرزها «قصيدة حب الى سيف عراقي»، وتعالج الشاعرة هنا من منظار الأنثى العربية، فنراها تستغل ألفاظ الحب والزواج والطفولة والكحل أشرق استغلال، معبرة بذلك عن حبها لشعب مناضل بطل :

أنا امرأةٌ..
قررت أن تحبَّ العراقْ
وأن تتزوجَ منه أمامَ عيون القبيلَةْ
فمنذُ الطفولةِ،
كنت أكحلُ عيني بليلِ العراقْ
وكنت أحنِّي يدي بطينِ العراقْ
وأتركُ شَعري طويلاً..
ليشبَهَ نخلَ العراقْ..

والمرأة العربية تعشق الفارس البطل ، وتحلم بذلك الفارس على جواد مطهم، يصاول ويجاول ويسابق الفرسان. وكيف لاتحب العراق وقد عاشت فيه زمناً، ورُبيت في جنوبه ، ورضعت عَراقة حضاراته؟ والحق أن سعاد عربية أصيلة حديثة الفكر والقضية، ترفض أن تشنِّف آذانها بزغردات العرس إلا إذا كانت منبعثة من ساحة نصر عربية :

تمرُّ شعوبٌ، وتمضي قبائلْ
فحيناً.. أنا لوحةٌ سومريةْ
وحيناً.. انا كرمةٌ بابليةْ
وطوراً أنا رايةٌ عربيةْ
وليلةُ عرسي هي القادسيةْ

وتتساءل الشاعرة عن سبب حبها للعراق من دون سائر الأمصار؟ ولماذا تصب قوالب شعرها على ضفاف دجلة؟ إنها تقدِّر في العراق دفاعه عن أرضه وأرضها، وعن عِرضه وعرضها. يستقبل العراقي رصاص أعدائه في حين أن الآخرين غارقون في ملذاتهم ومتزاحمون على حانات الغرب. وماعلموا أنْ لولا العراق لاستُبعدوا ولزالوا من الوجود.

مصر عبد الناصر

مَن نشأ على حب أرضه العربية شبَّ على أمل الوحدة الكبرى. ولاعجبَ بالشاعرة أن تنظر إلى عبد الناصر تمثالاً للوحدة العربية، وأن تجعل منه رمزاً توجِّه إليه نداءها، لتذكِّر العرب بوضعهم المنخذل المشتَّت.

وقد خصت سعاد بطل العروبة بقصيدتين؛ كانت الأولى في رثائه والإشادة بأمجاده، وكانت الثانية تَرجاعاً لبطولاته ووفائه. فهي تعتبر وفاته حزناً أكبر، دوَّى نعيُه في كل واد، حتى الشمسُ حجبت نفسها بثوب الحزن. وتستعظم الحدث ولاتصدقه. فتمثلت أمها تخاطبها، وتقول لها:

لاتقولي: اسلمَ الناصرُ للموتِ القيادْ
بعد أن كان مُنى العُرب وآمالَ البلادْ

لقد كان جمال أمل العرب وحياتهم المشرِّفة؛ فهو الذي علَّمهم معنى الجهاد والحب والوفاء. وكان أسطورة بطولة، وسيبقى رمزها في أرض العرب:

كان أنشودةَ حبٍّ ووفاءٍ ووداد
كان اسطورةَ مجدٍ ماروتْها شهر زادْ
سوف يَبقى في حَنايانا إلى يوم المعادْ

وتعتبر الشاعرة وفاته استشهاداً، لأنه عانى كثيراً من أجلِ العرب، ولأنه سار في درب الوحدة الكبرى. وقد أضفت عليه هالات البطولة النادرة، وعدَّته بناء شامخاً متماسك اللبِنات. فكان فخر العرب وملاذهم ومحررهم:

كان هو الأجملَ في تاريخنا
والنخلةَ الأطولَ في صحرائنا
كان هو الحلم الذي يورقُ في أهدابنا
كان بنا يطيرُ.. فوق جغرافية المكانْ..
مستهزئاً من هذه الحواجز المصطنعةْ..

وهو الذي رفع جباه العرب، وأعاد إليهم إيمانهم بقوتهم، وألهب حماستهم. وقد كنا ننتظر ظهوره في وقت كان ظهوره حتماً وضرورة. فانظر إلى تماديها في مناجاته ورموزه وحبه:

كان هو المهديَّ في خيالنا
وكان في معطفهِ يخبىءُ الأمطارْ
وكان إذ ينفخُ في مزمارهِ..
تتبعُه الأشجار

لكن الشاعرة تدرك في خلية نفسها أنها لاتنادي حياً فى شخص البطل ولا في شخص الشعب على السواء. فتنكفىء على آلامها حين لاتجد من يحلُّ محله:

أين أنتَ.. أين أنتْ
بعدكَ لاشعرٌ ولانثرٌ، ولافكرٌ ، ولاكتابْ
بعدك نام السيفُ في قرابهِ
واستنسرَ الذبابُ

وكل هدفها أن تُعلم الشعب العربي إنهم مفرَّقون مشتتون. وعوضاً عن أن يتلاحموا، تراهم يتسابُّون، ويحتربون ، ويهرسون شعوبهم الآمنة. وإنْ هي إلا تذكرة:

ياناصرَ العظيم.
هل تقرأُ في مَنفاك اخبار الوطن:
فبعضُه مغتصبٌ..
وبعضُه مؤجرٌ..
وبعضُه مقطعٌ..
وبعضُه مسالمٌ
....
ياناصرَ العظيم،
لاتسألْ عن الأعرابْ

فإنهم أتقنوا صناعةَ السبابْ
وواصلوا الحوارَ بالظفر وبالأنيابْ
وحاصَروا شعوبهم بالنارِ والحرابْ

ولولا التكرارُ في شعر المحور الوطني ـ وغيره ـ لكان عملها يزدحم بالعاطفة الصادقة والوجدان والوثاب. ولقد أجادت الشاعرة في شعرها السياسي الذي خصته بقسم كبير من دواوينها. ولاعجبَ فإن سعاد كاتبة اقتصادية سياسية كما هي شاعرة وطنية. وتَعتبر شعرها كلمة ناطقة باسم الشعب، وقذائف مصوَّبة في كل حرب، لا أغنيَّةً يطرب لها المنخذلون وطالبوا الترف. ولم تراعِ ولم تماليء، بل أحسنت الصراحة والتعبير.

والشعر الحديث ـ بطبعه ـ يلمس شكاوىَ الشعوب، ويعالج قضاياهم، ويشاركهم معاناتهم، وإلا لم يكن تعبيراً. وقلما نجد شاعر العصر اليوم يُطلق ريشته على هواها، ولايعدُّ شاعر قضية إذا هو سمح لهذه الريشة أن تعبر عن هوى شخص معين. ولقد غدا الشعر اليوم سياسياً لايقل عن مقال افتتاحي في جريدة سياسية غير منحازة.

ونحن إن عدنا إلى الشعر قديماً وجدنا الشاعر يحيا على هامش الحياة إن لم يحتكَّ بالحاكم، ولم يتكلم بمشيئته. أما اليوم فقد غدا سيد الشاعر شعبُه الذي نشأ معه على أرض واحدة ورضع قضية واحدة. فإن ابتعد الشاعر عن سيده (الشعب) عاش مركوناً على هامش الحياة والمجتمع.

فهذا الشعر المعاصر، المشحون بالسياسة والاقتصاد والمعرفة يناسب ثقافة سعاد وشاعريتها واختصاصها، وبه استطاعت أن تحيا عصرها وبيئتها بكل جوارحها، وبكل احتياجاته.

وهي إن أحسنت في محورها الوطني، تُرى فماذا كان دورها في المحور الاجتماعي، القضية الثانية التي كانت شُغلها الشاغل وهدفها الدائر كأنثى؟

المحور الاجتماعي

من هي امرأة الخليج ؟

وضع المراة عند سعاد منطلَقُ محورها الاجتماعي، وأساس إصلاح المجتمع. فهي البذرة الواعدة المطمورة في التراب. وهي منجم الذهب الذي مازال مخبوءاً في أحشاء الأرض، والذي تحاول في كتاباتها أن تكسر بابه المختوم منذ عصور بالشمع الأحمر. وهي هذا الجدول المهدور المياه، وهذه الطاقة المبدَّدة، وهذا الزمن الضائع، وهذا الطائر الممنوع من الطيران في أي اتجاه. هي هذه الغزالة الجميلة التي يطاردها الصيادون بالبنادق والسيارات والشيكات المصرفية، إلى أن تسقط تحت خناجر ذابحيها، وشهوات مشتريها، وأنانية مالكيها.

هي هذه الواقفة منذ مئات السنين على «أوتستراد» الحياة، ترفض السيارات الذاهبة الى المستقبل أن تقف لها، أو توصلها إلى المحطة الثانية. هي هذه الفراشة المغروسة بالدبابيس على جدران غرف الاستقبال أو غرف النوم، والتي يشتريها بعض الرجال إرضاء لهواياتهم، كما يشترون السجاد الكاشاني والطوابع والأسلحة القديمة. وهي أيضاً العاصفة المخبوءة في عباءة، والنار النائمة في قمقم والانفجار الذري الكبير المخبوء في ذرة رمل.

ولهذا ترى سعاد أن المرأة الكويتية مازالت في حرف الألف من أبجدية حقوق الإنسان. ولايزال أمامها شوط طويل للوصول إلى الحرف الثامن والعشرين. ولاتزال تحاول التسلق على سلم الحقوق المدنية والسياسية والاقتصادية والثقافية.

والرجل لها بالمرصاد؛ فكلما وصلت إلى الطبقات العليا من الهرم الاجتماعي ضغطوا على أصابعها حتى يَحولوا دون ارتقائها. وتقول: «والظاهر أن الطوابق العليا مخصصة لسكنى ذكور القبيلة فقط. أما النساء فمأواهم الطوابق الأرضية أو ما تحت الأرض. ولاترى الشاعرة تعالي الرجل وتسلطه على المرأة من حقٍّ أو من ثقافة

عالية. ولهذا ترى أنه يجب أن يثقف الرجل لتتم عملية تثقيف المرأة. فالجو المتحضر يؤهل الاثنين معاً الى حياة سعيدة مشتركة.

ولهذا حملت الشاعرة عصا العصيان مطالبة بحق المرأة ومساواتها اللذين تسلط الرجل بهما. لكنها لاترضى للمرأة أن تكون كسولة وخاملة في عملها وفي منزلها. وترفض لها أن تعتمد على الخادمة الأجنبية في تربية أولادها، زيادة في كسلها. وترى وجود هذه المرأة الغريبة في المنزل العربي استعماراً خبيثاً تسببه المرأة نفسها، ينجم عنه ضياع أبرز مقومات القومية العربية، ألا وهي لغة الأم؛ اللغة العربية.

ودفاعها عن المرأة نوع من الوطنية لديها، ومعها الحق، لأنها نصف المجتمع. فإن لم يبرز هذا النصف ويأخذ حقه من الحياة لم يستطع أداء واجبه. يذكرني رأيها هذا بالشاعر نزار قباني حيث أجريتُ معه لقاء تلفزيونياً في ليبيا في السبعينيّات. فبعد أن أنهينا حوارنا حول شعره القومي سألته: فحدِّثني إذاً عن شعرك في المرأة. فأجابني ـ وعلى قسمات وجهه الهادىء علامات الجد: وما الفرق بين المرأة والوطن؟ هذه جزء من هذا!

معركة العدل النسوية:

وهأنذا أمام صفحات دواوين سعاد، فلم أر في المحورين فرقاً. فهي أذ تخاطب شعبها للدفاع عن أرضه، ويقظته، وتلاحمه الجسدي مع سائر أجزاء الوطن، لاتختلف عن مخاطبته للدفاع عن حرية المرأة ونَصَفتها. ولعل خير ما أفتتح به كلامي في حق المرأة والمعركة الدائرة بين نصفي المجتمع قولها:

لا . . لن نذلَّ ولن نهُون ولن نفرِّطَ في الإباءْ
لقِد انتهى عصرُ الحريم وجاء عصرُ الكبرياءْ
وجلا لنا حقَّ الحياةِ، فكلُّنا فيه سواءْ

والشاعرة سعاد لاتتبنى بيئتها المحدودة في دولة الكويت. ولم تكن تنادي بتحرير المرأة من سطوة الرجل في بقعتها الصغيرة. إن شعورها القومي الواسع يحضُها على الانطلاق لتحقيق هذه الحرية في كثير من أرجاء الوطن العربي الذي مازالت المرأة فيه ترزح تحت عبء الرجال القوّامين. ولعل أفقها الأول كان امرأة

الخليج . هذه البيئة النائية ـ بالنسبة إلى الدعوات الإصلاحية في مطلع هذا القرن ـ التي تسيطر فيها التقاليد العتيقة، وتجثم أكثر ماتجثم على كاهل المرأة المثقل ، فتهدُّ من قوتها، وتذيب من شخصيتها.

فامرأة الخليج ترفض واقعها، وماضيها الأسطوري، وتقاليدها البالية، وتطمح إلى مستقبل عادل:

أنا الخليجيةُ
الهاربةُ من كتاب ألفِ ليلْة
ووصايا القبيلةْ
وسلطة الموتى

لكن رفض المرأة الخليجية هذا لايعني أنها تريد الانفراد في مسيرتها، بل إن رفضها هذا ناجم عن وضعها المقوقع والخامل. ورفضها ناشىء من منعها من مشاركتها للرجل في أعباء الحياة. وها هي ذي نساء العرب والعالم يؤدِّين دورهن في الحياة، بينما المرأة الخليجية قابعة في عُقر دارعها تنتظر الفرج بساعة الحسم. فهي تريد الانعتاق شريكةً لاوحيدة:

والتي تتحدَّى ـ حين تكونُ معكْ
حركة التاريخ ، وجاذبية الأرض
أنا النخلةُ العربيةُ الأصولْ
والمرأةُ الرافضةُ لأنصافِ الحلولْ
فبارك ثورتي

والمرأة الخليجية عربية الأرومة، تأبى الضيم والهوان، وتبغي العدل والمساواة للعمل المشترك، هدفها أن يعم الخير الجميع:

أنا الخليجيَّة . .
التي تقاتل بأظافرها
من أجل أن يكون الخبزُ للجميعْ
والمطرُ للجميعْ
والحبُّ للجميعْ

والمرأة الخليجية رمز العروبة والأنس الذي ينشده الرجل، وهي الأمن والسكن والراحة والرغد، وليست المرأة الأجنبية التي يهواها الرجل. وتعمق الشاعرة تعبيرها هذا عن طريق الرمز الذي يطغى على هذا المحور، فتقول :

أنا قصيدتُك المكتوبةُ بحبر الأنوثةْ
أنا عصفورتكْ
أنا جزيرتك
أنا كنيستكْ
فاسمعْ اجراسَ حنيني

ولايدرك حديث الشاعرة ومقاصدها عن نصفها الخليجيِّ الحلو، ولايطمئن الى صدق التعبير إلا من زار الخليج أو الكويت على الأقل، وعايش المجتمع هناك بنصفيه. وسيجد ـ بسهولة ووضوح ـ أن المرأة العربية هناك هي تلك المرأة الحييَّة الصريحة، سواء في ذلك القابعة في خدرها أو القائمة على عملها، الراضية بعيشها ظاهراً والثائرة في كوامنها داخلياً، الناعمة في معشرها، السمراء الجميلة، المعتزة بأجدادها الصِّيد، وبتاريخ أمتها التليد. ولافرق في ذلك كله بين المثقفة وغير المثقفة :

إنني بنتُ الكويت
بنتُ هذا الشاطىء النائمِ فوق الرمل،
كالظبي الجميلْ
في عيوني تتلاقى
أنجمُ الليل وأشجارُ النخيلْ
من هنا.. أبحر أجدادي جميعاً
ثم عادوا يحملون المستحيلْ..

وبنت الكويت ترفض هذا الشيطان الذي اسمه «النفط» ؛ فهو الذي أبعدها عن بيئتها الوادعة التي تحتضن البحر من شتى أطرافه. وهو الذي أفقدها الرابط الأسْري، وكان سبباً في ابتعاد الرجل عن تفكيره الإصلاحي المشترك. وتُصور الشاعرة في قصيدتها «كويتية» إباء المرأة الخليجية، ورفضها ولوج درب الرجل

المنحاز، وتأبى على نفسها أن تنساق انسياقه، وكأنها بذلك ـ صراحة ورمزاً ـ تنبهه الى المهاوي التي تردَّى فيها. فانظر إلى ندائها:

ياصديقي..
إنَّ عصر النِّفط مالوَّثني
لا ولازَعزع بالله اقتناعي

ومع أن عبق النفط يتصاعد أُواره من كل صورة ولفظة وردت في شعرها تقريبا ـ ولاسيما في مجال التقريع ـ ومع أن موجات الترف والسعادة تحف بأثوابها وجدائلها، وترفل بمطارفها، فإنها ترفض هذا الشيطان النفطي الوافد. فلقد داهمها يحمل بين طياته المادة الزاهية، ويموِّه من جمال الواقعية الحق التي كانت تواكب أرضها:

إنني بنتُ الكويت
ومع اللؤلؤ في البحر ترعرعتُ
ولملمتُ محاراً ونجوما
آه.. كم كان معي البحرُ حنوناً وكريما
ثم جاء النفطُ شيطاناً رجيما
فانبطحْنا عند رجليهِ رجالاً ونساءَ
وعبدناهُ صباحاً ومساءَ
ونسينا خلقَ الصحراء.. والنخوةَ .. والقهوة
والمهباجَ .. والشعرَ القديما

وانظر إلى تصوير الشاعرة الصارم، ولاحظ تلك المقارنة العنيفة التي تتمثل في نقد مجتمعها الطافح بالتقاليد والمفعم بالذهول المرفَّه، ولاحظ رموزها الواضحة القاسية. ولعلها من الشعراء القلائل الذين يربطون المجتمع بالسياسة، والرجل بالمرأة، والخليج بالشطآن، والكويت بسائر الأوطان.

ومعركة المرأة مع رجل الخليج عنيفة المجابهة، عنيدة المصاولة، عميقة الجذور. نجمت عن تشبث الرجل بموروثاته، وعن المرأة في طلبها العادل. صحيح أنها تأخرت قرابة نصف قرن عن زعماء النهضة أمثال هدى الشعراوي وقاسم أمين و... إلا أن دور امرأة الخليج في ذلك الحين لم يكن مناسباً، وقد آن أوانه الآن. ثم

إن دعوة شاعرتنا اليوم تختلف مفهوماً عن الدعوة آنئذ. ولا أذكر شاعراً معاصراً كان بعنف شاعرتنا وبجرأتها.

ولهذا نراها قصرت شعرها الاجتماعي على معركة سلمية تعلنها على الرجل الذي تحبه؛ أخيها أو زوجها أو حبيبها أو حتى ابنها. فهو مازال يراها مجرد تسلية واشتهاء، وأداة توليد وإنجاب وحسب :

يبغونهنَّ أداةَ تسليةٍ ومسألةَ اشتهاءْ
ومراوحاً في صيفهم.. ومدافئاً عبرَ الشتاءْ
وسوائماً تلدُ البنينَ ليُشبعوا حبَّ البقاءْ

ويظل الرجل إلهاً متجبراً، ألا يكفي أنه يرزقها فُتات العطاء:

وتذلُّ للرجل الإلهِ كأنه ربُّ السماءْ
مادامَ يمنحها المؤونة والقلادةَ والكساءْ

وهي ترفض هذا التعالي؛ فعهد الحريم زال، وزمان تحريم العلم للمرأة ولى. وإذا قال لها الرجل:

فلا تكتبي
وإنَّ الصلاةَ أمام الحروف.. حرامْ

أجابته الشاعرة بأن العلم غير محرم :

وهأنذا..
قد كتبتُ كثيرا
وأضرمتُ في كل نجمٍ حريقاً كبيرا
فما غضبَ اللهُ يوماً عليَّ
ولا استاءَ مني النبيّ
والحب عليها حرام، هو وحده بطل الهوى.
وإن التغزلَ فنُّ الرجالِ..
فلا تَعشقي !!
وإنَّ الكتابةَ بحر عميقُ المياهِ
فلا تَغرقي..
وهأنذا قد عشقتُ كثيرا..

وهأنذا قد سبحت كثيرا..
وقاومتُ كلَّ البحار ولم أغرقِ..

ويحرَّم على المرأة نظم الشعر. هل قلت : الشعر؟ إنه خاص برجال القبيلة وليس بنسائها. وكيف تكون لسانَ قومها وهي أنثى؟ الشعر والحب والحرب للرجال:

يقولونَ :
إني كسرتُ بشعري جدارَ الفضيلةْ
وإنَّ الرجالَ همْ الشعراءْ
فكيف ستولد شاعرةٌ في القبيلةْ؟

ويبني الرجل سداً منيعاً دون تقدم النساء، يمنعها به من التطلع إلى الحضارة، تكلم إذاً معركة خاسرة. ويبدو أن الشاعرة لم تلق الاستجابة، ولم تمنح جواز المرور لصور الحياة بحبور، فتراها لاتستكين. وتظل المرأة جريحة، وتقبل هذا التعذيب ماداموا اعتبرها في صف المسيح.

وتستمر الشاعرة ـ عبر السنين ـ في صراعها الدائر، مع حظها العاثر، مطالبة بحقها العادل في الحياة. وهي تعلم أن ظلمها ناجم عن قيود القبيلة التي كبلت الرجل قبل أن تكبلها. وهي تعلم كذلك أن الخليجي مثقف، وحائز للشهادات العربية والغربية، لكن دراسته هذه لم تمنحه حق الانعتاق من تقاليد القبيلة الجائرة. وهي في حربها كلها تريد أن تعبر للرجل عن حبها وإخلاصها، في حين أنه يزداد صلافةً، من غير أن تُلينه ثقافته التي نهلها:

لو كنتَ تعرف كم أحبُّكَ ..
لم تعاملْني كفرعون..
ولم تفرضْ شروطك مثلَ كلِّ الفاتحينْ..
لو كنتَ تعرفُ كم أحبُّكَ..
لم تكرِّسني كأرضٍ للفلاحةِ..
شأنَ كل المالكينْ..

وتتوسل المرأة للرجل، وترجوه ألا يعترض طريقها في التقدم، وألا يَحول بينها وبين النور :

أتوسَّل إليكْ..
أن لاتقفَ بينَ كتابي وبَيني..
بين ضَوء عيني..
وعيني..

وإذا كانت قصيدتها «قيتو على نون النِّسوة» أعنف ماجابهت به الرجل، فإن قصيدتها «توسُّلات» محطات رجاء تقف فها أمام الرجل الخليجي، وتبوح له بآلامها.

وهي حتى في غزلها تريد أن تكون مع الرجل ندًّا لند. إنها تحب أن يكون معها في الحياة كما تكون معه في الحب. إنها اشتراكية الحياة ومساواة الواقع وعدالة المجتمع. إنه اتفاق بين شريكين لكل طرف ما للآخر:

تعالَ..
اوقِّعْ معك اتفاقَ سلامْ
أستعيدُ به أيامي الواقعةَ تحت سلطتكْ
وفمي المحاصرَ بين شفتيكْ
وتستعيدُ أنتَ بموجبهِ
رائحتك المسافرةَ تحت جلْدي..

تناديه «تعال» من غير «سيدي» أو «أميري» هذه المرة، لأنها في صفقة متبادلة. وتفوض إليه أمر تدوين الشروط. وهي مؤمنة بعدالته في طرح القضية. وهي تعلم أن الشروط ستكون قاسية، وأن القسمة ستكون ضِيزَى:

اكتب النصَّ الذي تريدهْ،
والشروطَ التي تقترحُها..
ولسوف أوقِّعُ على بياض

فوَّضت إليه الأمر، وهي عليمة أنه لن يوقع مثل هذا الصك. وإلا فمن الذي يوقع على هذا الجور العادل والعدل الجائر؟ إنها أولاً تريد أن تخرج من حياته إلى

حين. وثانياً تريد منه أقسى مايعانيه الرجل العربي. فالرجل حرٌّ في التنقل من فتاة إلى فتاة، تماماً كالنحلة. لكنه لايرضى لزهرته أن تفعل فعلته. وثالثاً تفاجئه بعرض رهيب!! ولاشك أنها أذهلته، وإلا فما هذا الاتفاق اللعين؟:

تعالَ نجربْ .. ولو ليومٍ واحدْ
هذه اللعبةَ المستحيلةْ
فأطلبُ أنا في الهاتف رجلاً لايعني لي شيئاً
وتديرُ أنت رقْمَ امرأةٍ لاتعني لك شيئاً.

وتتابع الشاعرة (المرأة) عرض شروطها في قصيدة «الاتفاق» التي تعلم أن الرجل لن يقبل بواحد منها، وهو يعلم في خلية نفسه أنها تقول حقاً.

وتريك صور اليأس من نجاحها في مهمتها؛ فالرجل يظل ذلك السدَّ دون تحركها، ويظل المتسلط بلاحد عليها. لكن يأسها هذا لايعني أنها استسلمت. فالعربي مهما خسر في معاركه لايستسلم لثقته بالنصر أخيراً. ومن البديهي إذاً أن تظل تطالب بحقها.

وتزداد المجابهة، ويتأزم الموقف حين لاتراه يستجيب لنداءاتها، والوقوف معها في صف الحياة الواحد، وحين لايقدِّر حقها في الحياة. إنها تطمح في مسيرة مشتركة، ولكنها لم تجد لديه أذناً مصغية، ولارغبة واعية. فحملت في وجهه عصا العصيان، معلنة غضبةَ المرأة، ومصرحة بأنها ستسير وحدها في درب الحضارة والحياة:

إبق ثابتاً في مكانكَ ... كساعة المحطةْ
أو كملصقٍ سياسيٍّ سخيفْ
أو كموقفٍ إجباري لأوتوبيس الدولةْ

ستسير وحدها، لأنها يئست من عنجهيته ومن تكبره. هذا «السيد» الذي يرى في المرأة متعة وأحاديث فخار وصفحات انتصار:

أيها السيدُ
الذي يضعُ ساقاً فوقَ ساقْ

ويتغرغرُ بفتوحاته النسائيةِ القديمةْ
إنني أعفيكَ من مُجاملتي
ومن مُراسلتي . .

وليس هذا الرجل الذي تصوره لنا الشاعرة زوجاً، وليست هذه المرأة الأنثى الزوجة فقط. إنها فلسفة الشاعرة، تحلل فيها بين عنصري العالم: الذكر والأنثى؛ الذكر هو ذلك الوالد، والابن، والأخ، والزوج. . مالك البيت. والأنثى هي من هذه الأصول والفروع . . وهذا الذي تناطحه هو الذي وُلدته هذه الأنثى الصابرة، ولها الفضل على وجوده. ولولا ماوهبها الله من طبيعة متميزة لما كان هذا الطفل الذي عاش في أحشائها، وعانت معه ماعانت حتى إذا قويَ عوده ترسَّخ قعوده وازداد جبروته :

سيِّدي . . ياسيِّدي . .
أيُّها الحاكمُني من غير قانونٍ . .
ومن غير شرائعْ . .
أيُّها الحابُسني كالماء بابينَ الأصابعْ . .
أيُّها الطفلُ الذي لم أستطع تهذيبَهُ
والذي أهديته الصيف . .
وأهداني الزوابعْ
أيُّها الطفلُ الذي أخرجتُه من جَسدي
كم أنتَ رائعْ!!

والحق ـ قبل النهاية ـ أن الشاعرة كانت قاسية علينا، جائرة في أحكامها. فالرجل يحب المرأة كما تحبه، ولكنها التقاليد. وليس من السهل قلع جذور تقاليد صدئه بسهولة. وكان بإمكانها أن تدعوه إلى الثقافة الذاتية، وإلى التحضر. وأن تدعوه إلى رفض التقاليد المكبِّلة للمجتمع كله، تحصل على مرادها من المساواة.

ولعل مما أغفلته كذلك ـ وكنا نتمنى عليها أن تقوم به ـ هو أن تطالب المرأة بالدفاع عن نفسها، وتخاطبها وتحثَّها. ولم نرها وجهت قصيدة إلى المرأة مهدت لها السبيل فيها إلى الثورة (الاجتماعية). وكأنها تعلم أن امرأة الخليج مازالت تحتاج إلى

من يدعمها، ويتكلم عنها. وهى أن سُئلت عن رأيها في دور الجمعيات النسائية رفضت جدواها.

وقد لاحظنا أن الشاعرة كانت كثيرة التكرار في عرض أفكارها في هذا المحور. ومع أنها كانت تؤدي صوراً مختلفة إلا أن مفهومها واحد. كما أنها أكثر دَفقاً شعرياً على أساس التفعيلة في ميدان المحور الاجتماعي وليس على أساس العمودية القديمة التي اعتمدتها في الشعر الوجداني والغزلي.

والخلاصة : لم يكن دفاعها للسفور، فالمرأة الكويتية حرة في حجابها وفي التخلي عنه. ولم يكن في الحض على تعلمها، فهي متعلمة، والجامعة تعجُّ بالمتعلمات والمعلِّمات. وهي لم تُقم محكمتها إلا للنهوض بالجنسين معاً، والعمل على خلع جذور التقاليد الجائرة التي تمنع المرأة كل شيء وتمنح الرجل مايشاء.

المحور الوجداني

شعر الحب :

هل شاعرتُنا عاشقة حقاً ؟ ومَن هو المعشوق؟
هل هذه القصائد قصائدُ حب مادي؟
هل المعشوقة رمزٌ لمحبوبات ؟ أم هن واحدة؟

سعاد في هذا المحور أنثى، ناعمة، تذوب حباً ، وتغلي وجداً. وتسألني محدثتي : أين تلك الأنثى العنيدة الطَّلوب، والتي تحمل لواء المساواة والحق من هذه الأنثى الناعمة؟ فأجبتها: هي حين تقف لقاءَ جبروت الرجل تقف حامية مدافعة عن بنات جنسها، فتنسى أنها أنثى، وأن لها الحق مع الرجل. ولهذا أجرينا في الفصل السابق محكمة عدل أنثوية، لم يَصدر حكمها. وهي حين تصارعه فليكون نِدًّا عزيزاً محبوباً مقدراً. لكنها حين تنتقل إلى واقعها الأنثوي في شعرها تذوب بين يديه، وتحتفل بنفسها وثوبها لاستقباله.

ولاشك أنها تريد أن تقول : إن عدلَت كنتُ كما اشتهيتَ. وتقول : إذا كنتُ معك سعيدة سخوتُ بالعطاء والسكن، وقلبت تعاستك سعادة. وتقدر :

ياحبيبي، إنَّ قلبي ليس يَعصي لكَ أمرا
كلَّما هيأتَ لي تضحيةً.. هيَّأتُ عشرا
لو طلبتَ الشمسَ والزُّهرة والأنجمَ طُرّا
لترامَتْ حول أقدامِك بالفرحةِ سَكرى
مُرْ تَجِدْني أجعلُ الليلَ إذا ماشئتَ فجرا
والخريفَ الجهْمَ نِيساناً وألواناً وبُشرى

فلننس ذاكين المحورين، ولنعش بمجامع عقولنا سعداء مع هذا المحور الوجداني. وهذه الصفحة الرقيقة مهمة لراحة الوطن ولراحة مجتمعاته. والشاعرة التي صدحت في ميادين الشعر السياسية والاجتماعية تترك لريشتها الشاعرة الرقيقة أريحيتَها، فتذوب بحرارة الحنان، وتلين لقاءَ عواطف الوجدان.

وسنرى جرأتها في الحب لاتقلُّ عن جرأتها في مجالاتها السابقة. بل إن الشاعرة لتتمتع بجرأة نادرة لم نجدها لدى غيرها من الشاعرات. لكنها لاتبوح إن كان حبها صريحاً أو رمزاً. فإن كان صريحاً فمن المقصود؟ أو كان رمزاً فماذا تعني؟ ولم نشأ ـ عمداً منا ـ أن نسألها لتكون دراستنا غير منحازة ولامتأثرة ولاموجهة، وتكون منبثقة من دواوينها، كي يعايش القارىء الشاعرة بمثل ماعايشناها في أشعارها.

على أنَّ ماتمتاز به الشاعرة سعاد الصباح هو الواقعية في كل أشعارها، بما في ذلك رمزيتها. ولانكاد نرى الخيال مجنَّحاً إلا في الصور والاستعارات التمثيلية. وهي في ذلك أشبه بمدرسة نزار قباني.

والواقعية تبدو عندها جلية جلاءَ «المرأة» التي تناجيها.

فالفرحة لاتكاد تسعها صباح عيدها حيث ستلقى فيه أميرها. وهي على يقين من أن أميرها لن ينسى هذا اليوم السعيد. وماعليها ـ وكل براءة الأنثى ـ إلا أن تسائل المرآة عن الثوب الذي يسعده، وعن تصفيفة الشعر التي تروق له. وهي هنا أنثى رقيقية يداعبها الوجدان وتداورها السعادة. فانظر إلى هذه الواقعية في حديثها عن شعرها. وراقب وجدانية العاشقة الرقيقة :

أتتركُ الشَّعر منثوراً على كتِفي ... سنابلاً في مهبِّ الرح تَغشاهُ؟
أم هل أسوي شريطاً في جدائلهِ ... يلوِّنُ الليلَ في شَعري ويرعاهُ؟
وأيُّ قُرطٍ على أُذْنيَّ يؤثرُهُ ... وأيُّ عطرٍ على خديَّ يهواهُ؟

وتتابع الشاعرة حوارها مع نفسها الأنثى، والبهجةُ تداعبها، وتتحدث عن القرط والكحل. وحين أحست باكتمال الزينة حنت إلى الذراعين الدافئتين، وطغت السعادة على جوانحها، وتأججت عاطفتها لهذا اللقاء السعيد:

لاتكتُمي الحقَّ يامرآةُ، واعترِفي ... بأيِّ شوقٍ سَتلقاني ذراعاهُ؟

وأيُّ دفءٍ يُـثـيـر الـنـارَ في شَـفـتـي وأيُّ نـارٍ إذا مـاقـبَّـلـتْ فـاهُ؟
وكـم حكـايـةِ حـبٍّ في جـوانـحـنـا تُـروَى إذا عـانـقـتْ كـفِّـيَ كـفَّـاهُ

وكأنها أحست بكبرياء الشاعرة، وظنت أن المرآة ترمقها بعين السخرية والعجب، فأجرت حواراً داخلياً وواقعياً، وأجابتها :

لاتَـرمُـقـيـنـي بـإنـكـارٍ وسـخـريـةٍ فـثـروةُ الحـبِّ أغـلى مـا ادَّخـرنـاهُ

ونلاحظ أن قصائد الغزل عندها عطاءٌ وسخاء، انطلاق وانعتاق. تهب العاشقة نفسها لحبيبها، فتتخطى تقاليد العشيرة بكل جرأة وصراحة :

وهبتُك مفاتيحَ مدينتي
وعيَّنتك حاكماً عليها.
وطردتُ جميعَ المستشارينْ
ونزعتُ من مِعصمي أساورَ الخوفْ..
وإرهاب العشيرةْ..

وتتكرر قصائد الهوى الجامح عن ذلك المعشوق الذي صدقت الشاعرة في حبها نحوه. نقول : صدقتْ، لأنها لم تُرنا ملامحه، بل أرتْنا حبها نحوه. وهي تعترف بأن هذا الحب وحي عطائها الشعري :

أنا لولا حبُّك الملهِمُ ما حرَّرتُ سَطرا
حبُّكَ الملهِمُ خلَّى هَمساتي لكَ شِعرا

ونُحس في بعض قصائدها بسموٍّ في الحب، دعاه الشوق الطاهر إلى نظمها. وهي إذ تصدق في هذا الوجدان تؤدي معاني غنية وعواطف سخية. ولك أن تقول: مبالغة :

هو حبٌ مالهُ في أيِّ قلبٍ من قَرينِ
مارواهُ الدهرُ في ماضٍ ولا آتٍ السنين

وهي في حبها الصادق تُغرق في الرومانسية ـ كما سيأتي ـ فتختار من الطبيعة أكثرها عطاءً واخضراراً. فهذا الروض الزاهي، وذاك نيسان العطر، وذلك البدر المنير ٠

هوَ نِيسانٌ لعُمري وربيعٌ يَزْدهيني
هو بدرٌ في دُجى ليلي وتاجٌ في جَبيني

ولايَعني الجوى، والدموع، والشوق، و.. أن الشاعرة غير مادية في وصفها، ولاصريحة في لقاءاتها. بل يعني أن عواطفها تتباين بين الوجدانية والمادية، بين الجوى والرغبة الجامحة.

وهي أحياناً تحدثنا ـ بذكاء ـ عن استعدادها للقاء، وقرب دنوِّ قدوم الحبيب، إذا بها تسدل الستار عن الفصل الأخير فلا تكمل. وقالت لي محدثتي مدافعةعنها: ربما كان حبيبها على سفر. وأجبتها: صحيح أنها قالت عدداً من القصائد عن هواجسها حين الوداع، ومَعلمات وداعها تدل على مرحلة شائقة عاشتها، يبدو ذلك من التياعها من الوداع المرير، كقولها

أنتَ أدرَى بالذي هزَّ كياني.. أنتَ أدرَى
عندما حان الوداع المرُّ .. والنظرةُ حيرى

وتقذف الشاعرة عواطفها الحرَّى (غير مرة)، وأشواقها الملتاعة من لحظة الوداع. ولايكابد هذه اللحظة! إلا العاشق الصادق. وتتأجج عواطفها، وتنفضح أحلامها عن واقع صارخ. فهي هنا في لحظة الوداع أنثى صادقة الود، ناسية كل عِنْد :

آه لو كان إلى العودةِ يامولاي مَسْرى
لفرشتُ الهُدبَ فوقَ الدرب للعودة جِسرا

وتبرز أحياناً نشوة الحب، فتتعدى «القبلةَ» إلى اللقاءات الحارة. لكننا نلحظ أن هذه اللقاءاتِ مشفوعة بكلمة «ليتني».

وكأن الأماني جعلْتها تمتطي أجنحة الخيال :

ليتني غانيةٌ «الجيشا» التي تهوَى العَطاءْ
ليتني ... كي أهبَ العمرَ لعينيكَ فِداءْ
أملأ الدنيا حَواليك عبيراً وضياءْ

ومن قوالب الأماني تسترسل الشاعرة في وصفها الغزلِ المادي. ونرى

الحبيبين يلتقيان في شعرها أحياناً، ويمتصان رحيق الشهد أحيانا. وتنتشي الهمسات والقُبل في هذا اللقاء. فها هي ذي مِزَّة «القبلة» يعبق أريج رُضابها في قطعة شعرية نادرة، وكأن الخفر اعتراها فحكت قصتها على لسانه:

قالَ لي .. وهو بطعمِ القُبلة الحسناءِ أخبرْ:
إنَّ في ثغركِ نافورةَ ياقوتٍ وعنبرْ
لو رَنا الوردُ إلى أنفاسها الحرَّى تَبخَّرْ

ونرى ـ من خلال شعرها ـ لقاء نادراً في «أُمنية» جرى بين الحبيبين في «قصة ليلة»، وكان سرور المعشوقة في أوجه:

أللهِ .. ما أجملَ ليلَ اللقاءْ
ربِّي.. أمِن أجلِ هذا المساءْ
رصَّعتِ الأنجمُ شَعرَ المساءْ؟

وازدهرت الدنيا بهذا اللقاء، ورقصت الطبيعة، وغنت الأطيار، ونَقنقت الضفادع. كانت عاصفة اللقاء هوجاء، واندمج الحبيبان في ارتواء:

اللهِ.. ما أجملَ هذا المساءْ!
وسيِّدي يغمرُني بالعطاءْ
يُسْلم شَعري لجنونِ الهواءْ
يغمرُ ثَغري بألذِّ ارتواءْ
ويَحتوي صدري.. وأيُّ احتواءْ
كأنَّني زنبقةٌ في إناءْ

ويسر الشاعرة أن تسترسل في وصف لقاء تلك الليلة بكل تفصيل. فها هوذا يداعب شعرها، لكن لونه يحرقه، وانتشاره يؤرِّقه. وهو يغار منه، ومن المشط، ومن النسائم التي تداعبه ، ومن الكحل الذي يزين عينيها، ومن القرط الذي يحلي أذنيها.

والحق أن الشاعرة لم تُرنا محبوبها غداراً ولاظالماً ولامتهاوناً. كما أنها لم تصوره لنا بريشتها وعينيها، بل صورته لنا بقلبها وخيالها:

مـولايَ كيفَ اختلْتَ فـوقَ الثـرى ولـسـتَ مـن طيـنـةِ هـذا البشرْ؟
أنـت نـقـاءُ الـفـجـرِ في ظُـهـرهِ وبهـجـةُ الـعـطرِ ونـفـحُ الـزهَـرْ
أنـت انـطلاقُ النفسِ من قيـدِهـا أنـت النَّـدى .. أنـت عـطاءُ المـطرْ

وصورته لنا يدخن لفافته :

أشعلِ السيجارةَ الحسناءَ يُلهبني الشرْر

وأرتنا إياه يطبع شعرها بطابع التفاؤل، ويمنح العاطفة على أساس التعادل، ويوجه الشاعرية نحو سمو النفس لدى الشاعرة حتى ارتقت بحبه أسمى المراتب. فهو حيناً سبب الدفْق الشعري، وحيناً يُبلغها سرورها مرحلة من اللعثمة والارتباك، مزيداً من الواقعية والانفعال:

كلَّما ناجاكَ شِعري بحنينٍ مستعرْ
ذابتِ الأبياتُ في ثغري والتاعَ الوترْ

فالحبيب عندها خيال مشوب بالواقع، ويضيع القارىء بينهما. إنها ـ هنا ـ مثل حافظ الشيرازي الذي يحار النقاد في غزله، أهو غزل مادي أم عشق وجداني رباني!! وسعاد تقرأ قصائد حبها حكاياتٍ حائرة.. فهل هي صادقة في الحب معه؟ أم أنها تحب ذلك الإنسان العربي بصورة المرأة الخليجية؟ إن في حديثنا عن «الغربة» بعض مايوضح هذا التساؤل، ومانزعم أنه الصواب.

وقد يعترينا بعض الشك في صدق حبها أحياناً حين نراها تتباهى بهذا الحب وكأنه دمية في يد طفل، وتعمد إلى توسيع أفقه وتعميق جذوره. وكذلك حينما نراها تبالغ جداً في عمق حبها، وتصفه بأنه يفوق حكايات العشاق جميعاً. وهل هناك مبالغة تفوق قولها في إنسان الخليج؟:

قرأتُ كلَّ معاجم العشقْ
وكلِ رسائل العاشقينْ..
قرأتُ «طوقَ الحمامةْ»..

و«نشيدَ الأنشاد» و«مزاميرَ سليمان»[1]

قرأت «أوڤيد»[2] و«عيونَ الزا»..
ولكنني لم أستوعبْ حتى الآن
قصةً تستوعبُ مُنانا

والخلاصة أن قصائد الحب عندها صارخة بالوجد، مفعمة بشوق المرأة، تطفح فيها المبالغة بشكل بارز. ويكفيك شاهداً قصيدتها «أعقل المجانين» لتلمس بنفسك مبالغاتها العشقية.

---

(١) المزامير هي المنسوبة إلى النبي داود، وتؤلف ١٥٠ نشيداً تؤلف سفراً من العهد القديم، وليس كما ورد في النص. أما «نشيد الأنشاد» فهو للنبي سليمان، يتغنى فيه بالحب والجمال.

(٢) تقصد الشاعرة أنها قرأت قصائد أوفيد الغرامية، والتي هي عبارة عن قصائد أرسلها الزوجات الى أزواجهن أو عشاقهن. وله قصائد حب أخرى. وأوفيد شاعر لاتيني (٤٣ ق.م-١٨م) عاش في منفاه جنوبي نهر الدانوب.

الكآبة والغربة :

وسألتني محدثتي : فما أسعد هذه الشاعرةَ، وهي ترفل في هذه السعادة وفي هذا الحب البهيج! إلا أن محدثتي حين لمحت على محياىَ أمارات الإستنكار والاستغراب عادت تسألني : وهل من المعقول أن يعتريَ مثل هذه الشاعرة حزن واكتئاب؟ فماهو؟ وماسببه؟

قلت لها : إن امرأة الخليج كمياه بحرها يهدأ حيناً، لكنه يثور ويهدر أحايين كثيرة. ومادام الإنسان ذا انفعال فلابد له من تقلبات العيش غنياً كان أو فقيراً، شاعراً أو عالماً أو أجيراً. ولولا إيمان الشاعرة الراسخ بالله لخارت قواها، ولاعتراها مايشبه الذهول.

ولاشك أن القارىء الصادق لشعرها يشارك الشاعرة آلامها وأحزانها، كما شاركها في وطنيتها وحبها. وهو إن أدرك شعرها الوطنيَّ والاجتماعي وشاركها انفعالاتها، فإنه يصعب عليه تقدير كُنْه أتراحها ومأساتها. ورغم ذلك فإن أحاسيسه تدفعه إلى تصديق مايعتريها من أوقات حزن، ويندفع متأثراً يقرأ معها. وما أشيرُ إليه هنا لاعلاقة له بحزنها على فقيدها الغالي «مبارك»، إنما هو مرتبط بحالاتها النفسية الأسيفة. فقصيدتها «آهة» مجموعة آهات، وحرقة، وذوبان فؤاد. وهي نموذج وجداني عميق لاسْوِداد الأيام في حياتها :

قلبي تميمةُ حزنٍ مقرونةٌ بالسواد
ونَظرتي بنتُ يأسٍ وبَسمتي من جِدادِ
أوّاه لو ذقتَ مثلي عذابَ كأس البِعادِ
إذنْ لهالكَ أني أعيشُ والدمعُ زادي

والأحزان معها تَثْرَى، ويذكرها كل شيء بآلامها. حتى المطر؛ رمز الخير وسعادة الإنسان، فإنها إن رأته يهطل مدراراً ذرفت دموعها حرَّى وقالت :

أمطريني . . أمطريني ياسماءُ
وانظرِيني . . نحنُ في الدمع سَواءُ

ولابد لنا من كشف مَعْلمات توضح لنا بعض أسباب ظهور شعرها الأسِيف. فهي تتحدث عن السفر، وعن الغربة، والوحدة، والأسى، والعشق الحزين، والإبتعاد، والفراق، والأسفار. . وتعثُّر الأماني

أنظم الشعرَ وأشْدو للهوى
وأغنّي لمتاهاتِ المُنى

ونحن كثيراً مانلقاها حزينة يائسة في عشقها. فقد تربط اليأس بالموت، وكأنهما ندَّان غير منفصمين:

أختَ رُوحي، كنتِ بالأمس بقُربي تَشهدينْ
وَقْفتي الحيرى بمحرابِ الهوَى الباكي الحزينْ
ويدُ الموتِ تُشلُّ الأمنَ في دَرْبي الأمينْ

ويبتعد الحبيب عنها فتساورها الظنون أنْ ربما سلاها أو تناساها، مما يزيدها أسى وحرقة:

أَتَرى تذكُر أيامي الحيارَى
كلَّما شطَّ بك الدهرُ مَزارا؟
فإذا طافَ بك الشوقُ غِرارا
فتذكَّر أنَّني ذُبتُ اصطبارا

ولحظات الافتراق مَبعثة للآلام والأحزان، مهما كان اللقاء سعيداً وطويلاً:

وافْترقْنا، وأنا أدفنُ في الصَّمت نُزوعي
وأُداري حَرَّ أشواقي وأَنَّاتِ وُلوعي

لكن الحبيب أحيانا يؤلمها؛ فهو يبتعد عنها، ويسلوها، ولايعبأ بها، فيُضنيها، فتحيا أياماً محطمة. وهي في مثل هذه الحال ترفض هذا النوع من الرجال، وتأبى على نفسها الخنوع. فما أحلى الحريةَ حينما ينعدم الوفاق:

إنْ كـان هـذا، فـهـو لـي رحـمـةٌ فـقـد هَـوى القيـدُ وفُـكَّ الأسيـرْ

حتى الوشاة كان لهم دور في إقلاق راحتها وبَذر البؤس في حياتها.

وتبرز كآبتها عند شعورها بالغربة. والشاعرة عانت كثيراً من الغربة. وهي لاتعني الغربة الجسدية (الرحيل)، فهذا نوع سرعان مايتأقلم صاحبه مع البيئة الجديدة. لكن الغربة التي تُعانيها وتَعنيها، ويعانيها كل مواطن عربي هي غربة الروح وغربة الفكر. وتقول الشاعرة: «وفي هذا المعنى كلنا غرباء ومطاردون ومُستلَبون. وهذه الغربة الداخلية لاعلاقة لها بالمكان، فقد يكون بيتك في الجنة، ومع هذا تشعر بأنك وحيد وغريب ومستلب».

ولكن هل عَنت شعراً في الغربة ماقصدت إليه نثراً؟ ذلك ماعلينا كشفه لأهميته. والحق أن موضوع الغربة شديد الأهمية في أدبنا العربي، وفي حياة شاعرتنا بخاصة، لأن القارىء يحس بأنها تحيا غربةً مقيتة. فلاهي تلقى السعادة في وطنها، ولاهي تلقاها في ديار أسفارها، ولاحتى لدى أَوْبتها من رحلتها :

عدتُ بقلبٍ ضائعٍ محطمٍ بعد السفَرْ
كطائرٍ تقذفُهُ الريحُ وينعاهُ المطَرْ
تَغتالُني في وَحْدتي الخرساءِ أشباحُ الضجرْ

وتبين كآبتها في أسفارها مرة بعد مرة، وتنتقل من مكان إلى مكان، دون أن تجد الراحة المنشودة. فتصور قلقها بوصف حقيبة سفرها :

حَقيبتي مُرهقةٌ تململتْ منَ العناءْ
ونَصلتْ ألوانُها وأضحتْ بلا رواءْ

وهي إن أحبت بغدادَ لنضالها فقد أحبت القاهرة لجمالها ، فبِها حطت رحالها، وعليها رمت أثقالها. وكأنها حنت إلى هذا البلد، فأنطقت حقيبتَها بشوقها:

تَسألني : متى نعودُ للحنان والوفاءْ
للحبِّ في قاهرتي وللجمالِ والصفاءْ

وتنسى الشاعرة ـ نفساً وجسداً ـ كل أحزانها في القاهرة. وكيف لا وقد دخلت هذه المدينةُ في شرايين حياتها؛ إذ درست فيها، وترعرع فيها المبارك، ودفن فيها. ولهذا فإنها تسلو أحزانها فيها:

تُسعدني الأحلامُ فيها بأغاريدِ اللقاءْ
على ضفافِ النيلِ، عاش النيلُ، قدسيَّ العطاءْ

ولكنها لم تذكر أين كانت؟ ولماذا هذا الشقاء؟ وحديث السفر لديها ليس مقصوراً عليها. صحيح أنها تحيا غربة السفر، لكن حبيبها أيضاً كثير السفر. وكم تتضايق من قولته «مسافر غداً»، لأن بُعده عنها يكبِّلها بالأحزان:

لا .. لاتقُلْ لي أبداً : إني مسافرٌ غَدا
أتهجر القلبَ الذي غَيْرَك ما تعبَّدا؟
أتركُ العصفورَ في وَحدته مقيَّدا؟
وأنتَ مَن كنتَ له على الزمانِ مُسعِدا؟

وما أقسى على المرأة السعيدة سفر مُسعدها بل :
كأنَّه مِن غضبِ الله على اليوم صَدى

وتصطرع الغربة في شعر الحب عندها. ومعاني الغربة غيرُ معاني الهجر، وغير معاني اللقاء. فالغربة قلق، وكآبة، وتوقع، وأحلام، وأوهام، وشعور بالهجران. ولعل أبرز مايعمل على إشاحة غيوم الكآبة والغربة استقبال المحبوب أو رضاؤه:

أنا في غُربتي غَريقةُ أوهامي
وفي شاطئيكَ برُّ الأمانِ

ومما نستنتجه من حديث المحور الوجداني اصطراع الصور وتناقضها. فقد امتاز أغلب شعرها الوجداني بفكرتين هما على طرفَي نقيض، باستثناء شعرها الحزين في فقيدها طبعاً. فقد رأيناها في جهةٍ سعيدةً هنيئة لاتسعها الدنيا فرحة، وفي جهة أخرى كئيبة حزينة تضيق الدنيا بها وبما رحُبت. والملاحظ أن سعادتها تبرز أكثر في خيالاتها، وأن حزنها يبدو أكثر في أثناء حديثها عن غربتها. وهي إن كانت تتخيل نهاراً تبدو فيه سعيدة مشرقة:

أنا في غُربتي أحسُّ ذراعيكَ
تشدَّانِني لحضنِ السكينَةْ

أما إذا حل المساء فإنها تحس بالغربة والوحدة، وتسودُّ الدنيا أمام ناظريها :

فإذا أقبلَ المساءُ وغامتْ
وَحدتي، بِتُّ في عذابي سَجينَةْ

لكن هذا الحكم ليس قاطعاً. فهي سرعان ماتأتي بصورة نقيضة؛ فتحب الليل إذ تتابع فيه أحلام اللقاء. وتكره الفجر لأنه يعيدها إلى الغربة :

ومضى الليلُ قصيراً وبدا الفجرُ نذيرا
وإذا لُقياكَ رؤيا ترسُمُ الوهمَ قُصورا

وينعدم الصديق وقت الضيق، فيزيد ذلك من مقاساتها للآلام والوحدة، فتسود الدينا حولها، ويُمحي البريق من عيني نجوم السماء.

الصمت المثلم :

صمتت الشاعرة عامين حين فُجعت بولدها. وهل هناك ألمٌ أشد من وفاة فلذة كبدِ أمٍّ حملته وهناً على وهن، ثم ربته يوما بعد يوم، ثم أنشأته وعلمته، وبنت عليه الآمال. حتى إذا شب وبلغ مرحلة الافتخار والاعتزاز ضاع من بين يديها بدقائق معدودات؟

صمتت الشاعرة ـ من عزم الواقعة ـ حتى ظنت أنها نسيت قرض الشعر. إنها نسيت كل ماحولها حتى الشعر. لكن شاعريتها لم تصمت؛ فقد كانت تنفعل في ذاتها، وتختزن المعاني وراء البعد الفكري المتزامن مع الحدث، حتى إذا انقشع جانب من غمامة الأسى، وعادت إلى ذاتها، وتذكرت أنها شاعرة، انفرجت أسارير الشعر عن التعبير الحزين. وانبلجت عبقريتها لتصوِّر الحدث الأكبر بكل دقة، لترفده بكوكبة من القصائد والقطع. ولاتقلُّ القصيدة عن أختها نوح عاطفة، ولا لون أسى.

ولقد جاءتها البشرى حين تحرك ما في النفس، يغري القلم والنَّفْس لتكتب وتنظم؛ ففي البوح تخفيف عن الألم ورتْق للأوجاع. وانبرت تجمع قصائدها في «المبارك»، وتبارك هذا الشتات الذي خلَّد فلذة الفؤاد. ثم قدمت له بقولها :

أيُّ بُشرى ! قلمي لاغَى وناغى وتكلَّمْ
بعدما استسلم لليأس وأغفى وتأزَّمْ
خِلْته مات، ولكن كان في صمتٍ مثلَّمْ
ثم وافى بعد عامينِ بشَجوي يترنَّمْ

وكان هذا الحدث الأليم تحولاً كبيراً في منحاها الشعري، فغير كثيراً من نوافذها الشعرية. فقد خفف من التفاؤل عندها، وزاد من إحساسها بالغربة والانزواء، حتى وهي في بيتها بين أهلها وأبناء وطنها. وطُبع شعرها بطابع الجدية، فخف الطرب، وسما الغزل،

ليخصَّص بمالك الفؤاد وأنيس الوداد. ورهفت ألفاظها وتوشحت بالكآبة. وخصت أغلب شعرها في «المبارك». وتمنت ـ عندئذ ـ أن تسوِّد الصفحات فيه :

ولدي . . ليتَك تَدري كيف باتتْ أُمسياتي
لو بساطُ الأرضِ طرْسي، ولوِ البحرُ دواتي
لملأتُ الكونَ ! إيقاعاً حزينَ الصفحاتِ

ومعها الحق . وماتفعله بنفسها لم يكن أقل مما فعلته أختها الخنساء على أخيها صخر. وقد أدركت أن قلم الشاعر لايعرف معنىً للممات.

ولنبدأ الحكاية من أولها.

فقد كان بكرها المبارك يرفل بسعادة حنان أم، ويتنقل معها في بعض أسفارها، يتعلم منها بعد أن نبتت زَغَبه على سني عمره. وكان عمره اثنتي عشرة سنة :

رجولةٌ ماكُتبتْ في الدهر لابنِ اثْني عشرْ

وحين يأزف اليوم التاسع والعشرون يبلغ ابنها الثالثة عشرة من العمر :

العيدُ غداً للبيتِ يَزينْ
فغداً . . في التاسعِ والعشرينْ
ولدي في عُمر البدرِ يَبينْ
ويُتمُّ ثلاثَ وعشرَ سِنينْ

لكنه كان قد فارق الحياة قبل هذا. فقد وقع في مرض في القلب، فحملته بين ذراعيها إلى لندن للمعالجة والشفاء. وبينما كانا في الطائرة ضاق نفس المسكين ورجاها الغوث :

صاحَ بي طِفلي المفدَّى وهو مخنوقُ الأنينِ :
وَيكِ أمي أدركيني . . ويكِ أُمِّي أنقذيني
أسعفيني بهواءٍ من صمامِ الأوكسجينِ
وخُذيني في ذراعيكِ لأرتاحَ . . خُذيني

وانظر إلى هذه الأم الملتاعة الرؤوم، وهي تحاول بشتى وسائلها إبقاء حياة ابنها، ماذا تفعل؟؟ إنه يطلب الأوكسجين. لكنه لم يجد نفعاً: فالضيق ليس ضيقَ النَفس، بل نزلة على القلب الجهيض. فيرجوها القرص يضعه تحت لسانِه:

أخرجي الحبةَ من جَيبي، فقد كلَّتْ يميني
وَضعِيها في فمي علِّيَ، أشفَى بعدَ حينِ
وانزعي ربطةَ صَدري، إنها قيدُ سجينِ

وتتابع الأم وصف النزع المؤلم بأحاسيسها الواجفة، تعبر عنها ريشتها الراجفة. لكن الطفل لم يحالفه حظ النجاة بعودة الحياة، فسقط صريعاً، ويا لها من لحظة :

قالها، ثم ارتمَى في الأرض كالفرْخِ الطَّعينِ
فارتَمى قلبي عليه في ارتياعٍ وحَنينِ

وأين هي الأم التي تملك المقدرة على الثبات؟ وسعاد أكثر من أم؛ إنها شاعرة رقيقة المشاعر. ألم تبك وطنها، وبناتِ جنسها، وأمَّ الشهيد، والغسالة قبله؟ وهذا ابنها وبكرها! ولما كانت الأم تهتم بالابن المريض حتى يشفى، وبالصغير حتى يكبر فقد قالت :

كلماتي مُرَّةٌ كالصبرِ حرَّى كدموعي
منذ أن جارَتْ يدُ الموتِ على أغلى شُموعي

وقد كان المبارك لسعادتها الماضية مباركاً، وكان كذلك للمستقبل. فهو العطاء وهو الأمل :

مباركُ كان لي دُنيا من الحبِّ أُناجيها
وآمالا أعيشُ بها وأحلاماً أغنيها

فهي تربط أساها بمبدئها، وتحضن أهدافها باحتضان ابنها الغالي. وقد قررت منذ مقدمة الديوان أنَّ ماتنشده إنما هو هدية لروح فقيدها:

هاكَ شِعري، وسأتلوهُ لروح ابني الحبيبِ
ولأهلي، ولأحبابي، وللحقِّ السليبِ

سوفَ أرويهِ بدمعي الثاكلِ الثرِّ الصَّبيبِ
وأنا في غُربتي، أواهُ من عيشِ الغريبِ

والشاعر حياته قلمه، وأشعاره بلسمه. وهو حين ينشد تخف حدة جراحه، وتهدأ موجات آلامه. ومع أن المبارك في عمر البراعم الغضة فإنها تمنحه صفات الرجولة والإقدام. ولكنها الأم، ترى ابنها الصغير كبيراً طُموحاً، وابنها الكبير صغيراً تَحبباً:

أنسيتُمْ أنهُ صقرُ الخليجْ
مشرقُ الطلعةِ فوَّاحُ الأريجْ

ولقد أذهلها المصاب، وقرَّ بها الأسى من ربها أكثر، وزاد من إيمانها:

رِفقاً بقلبي، فهْوَ لولا عمقُ إيماني ، كَفرْ

لكنها مؤمنة بالله، تلجأ إليه، وتلوذ به. وهي ترجوه الرحمة:

لعلكَ يارَبُّ ترحمُ ثُكلي
وتنزِعُ من شوكهِ ماتشاءْ

وهكذا ولد الحزن في حياتها بعد وفاة ابنها ولم يمت. فضاق عيشها، واسودت الدنيا في عينيها فلم تعد تحبها ولاتحب ما فيها. وتكرر سعاد هذه الصورة كثيراً، دليلاً على شدة لوعتها:

لقد حجبَ الحزنُ عني الوجودَ
وأمسيتُ أشتاقُ حضنَ الفناءْ
كرهتُ الحياةَ ومافي الحياةْ
كرهتُ الصداقةَ والأصدقاءْ

والحزن الأبدي يستدعي صاحبه لأن يدعو ربه أن يعجل خلاصه. وتعددت فكرة الخلاص لدى سعاد. فهي مرة ترجو العجلة بمصيرها، لأنها تعلم أن الأعمار مكتوبة. ومرة تتمنى ألا تكون ولدت، بل حبذا أن تكون ولادتها جرت في زمان الجاهلية؛ زمان وأد البنات، حتى لا تكبر وتلد ولداً تفجع بفقده. وتأتينا هنا بمقطع مفصل في العرض ينم على ثكل عميق:

ليت أمي ولدتْني في زمانِ الجاهليَّهْ
بين قومٍ يئدون البنتَ في المهدِ صبيَّهْ
قبل أن تصبحَ أمًّا ذاتَ أزهارٍ نديَّهْ
وتذوقُ الثُكلَ والسُّقمَ وألوان البليَّهْ

والمصاب يتفلسف. فتعتريها حالة من التفكير في الحياة والموت. والناس جميعاً فلاسفة في مسألة الموت لهول مايرون. وتتساءل الشاعرة عن هذه المعادلة الفكرية :

ليتَنا ندركُ ماذا خلفَ أستارِ الروايهْ
بعدَ أن يستأثرَ الموتُ بأبطالِ الحكايَهْ
أفناءٌ ثم بعثٌ ونشورٌ وبدايَهْ
تجمعُ الأحبابَ في ظلِّ حياةِ اللانهايَهْ؟

ويحلو للأم أن تستعيد ذكرياتها مع ابنها. بل إن كل شيء حولها يذكرها به. لكنها تسترسل في تخيلاتها مع ماكان يفضل. فقد اشترت بيتاً جميلاً في الهرم بالقاهرة. فأحب الطفل هذا البيت كثيراً. وككل أم تحلم بتأمين مستقبل ابنها، فراحت تتصور أنه حين يبلغ سن الرجولة ستزوجه في هذا المنزل الذي يحبه. ولما حرمه القدر العيش فيه حياً، فقد دفنته فيه ميتاً. وتتوقف مع ذكرياتها لتصف هذا المكان. لاحباً بالمنزل ولكن حبا بمن كان يحبه ويسكن فيه :

ها.. هُنا ياولدي، نورُك عن دنيايَ مالْ
ها .. هنا غُيِّبتَ عني وتوسَّدت الرمالْ

وتتذكره في كل شيء يحبه: في غرفته، وألعابه، وكتبه.. كل شيء يذكرها به :

غرفةٌ تبكي على سيِّدها بالحسَراتِ
لعبٌ تبحثُ عن لاعِبها دونَ أناةِ
كتبٌ تسألُ عن صاحبِها : أنَّى مَواتي؟

ومن شدة ولوعها به وتلاحُق أطيافه اعترتها حالة من أحلام اليقظة. فقد نسيت أنه مات، فراحت تتوقع عودته، فتستعد لاستقباله. ونصدق مايعتريها، لأننا

نعلم أن روح الغالي لاتفارق منزل الأحباب:

وكم مرةً ياحبيبي تُواعدني أن تزورا
فألبسُ ثوبَيْ ضياءٍ وأرسلُ شَعري حريرا
وأملأ يومي شُموساً وأزرعُ ليلي بُدورا

ونراها حيناً تخاطبه وتدعوه ليلعب مع أترابه. فقد سألوا عنه مراراً، وآن أن يعود إليهم :

رفاقُك الصغارُ يسألونني عن الخبرْ :
شهران مرَّا والمباركُ ماظَهرْ!

لكن أحلامها هذه لاتعني أنها فقدت زمام تفكيرها، وأنها ذُهلت تماماً. فهي تعلم أنها فقدته، وأنه لن يعود، لكنه قلب الأم. ولهذا نراها توجه حديثها إلى الصغار لتعلن لهم نبأ النكبة التي أضرمت نار قلبها. ويدل خطابها للصغار مبلغ الألم الذي يحيط بها:

يا أيُّها الصغارُ.. هكذا قَسا بنا القَدرْ
وهكذا اغتالَ أعزَّ مالعُمري أدَّخرْ
وهكذا طوى حبيباً كان في عمر القمرْ

وتتكلم باسم ابنتها الصغرى «أُمنية» وتجعلها تناديه، وهي في المهد، لتخبره ان عمرها بلغ سنة، وأنها تتوقع منه الهدية المناسبة لعيدها الأول:

يا أخي.. أصبحَ لي اليومَ من العمر سَنةْ
قم وهنئني ببعض البسماتِ المحسنةْ
عُد وهبْ لي لعبةً أو زهرةً أو سَوسنةْ

ولو شئنا استعراض ديوان «إليك ياولدي» ماوفَّيناه حقه. وبهذا نختتم ديوان الأسى واللوعة، ويُطوى الصمت الملثم لينبىء عن عاطفة شرِقة وهلع مبرِّح. لتكشف الشاعرة لنا عن صفحة من صفحات مقدرتها الشعرية، وتزيل صفحاً عن بهجة كانت تصافح بعض أيامها ، فتتلون صورها بأبهى الألوان.

هدَّأ الله رُوع كل أم ثكلى .

عالم سعاد الصباح

نوافذ شاعرتها :

أعترف مُسبقاً أننا معشرَ نقاد الشام ولانعرف جيداً أدب الخليج ، وهذا تقصير كبير منا، ومن سوء النشر والتوزيع . وماكنت أتصور ـ قبل زيارتي الأخيرة لدولة الكويت ـ أنني سأحظى بنتاج شاعرة ذات فنية خاصة ، ومزاج معين ، وصوت أنثوي جَهْوَري منبثق من بين الرمال .

والمعروف عني كثرة الترحال العلمي . وفي كل رحلة أجوب فيها بعض الأمصار كنت أعود بزاد ثمين من المخطوطات . أما في رحلتي الأخيرة إلى الكويت ، والتي دامت تسعين يوماً ـ فقد عدت بكنز أدبي ، هو مجموعة كتب أدبية طبعت في الخليج ، وكان من بينها دواوين الشاعرة سعاد الصباح ؛ نازك العراق ، وفدوى فلسطين ، ونزار الشام . أهدانيها صديق أديب صحفي كبير متباهياً بنتاجها .

وسألتني محدثتي : وأين هي مخطوطاتك من هذه الرحلة؟ فأجبتها : هذه المرة سأتمتع بقراءة دواوين شاعرة ، كنت قد باشرتُ بمطالعتها من هناك ، ولمست فيها مايسرُّ الأديب الناقد . واندفعت إلى المطالعة ، واندفقت معي الأفكار ، وتوافدت الآراء على البطاقات ليلاً ونهاراً . . فكانت هذه الدراسة .

والحق أن شعر الشاعرة سعاد صوت كل امرأة في الخليج ، وصوت كل عربي يناضل في ساحة الشرف ، كلِّ إنسانة تطالب بالحرية . إنها لاتقولُ ماتقول ممَّا جَرَياتها ـ مع أنها واقعية ـ بل من تأملاتها وآمالها كذلك :

وكلماتي أحرفٌ من خيالْ
ونبضُ قلبٍ عاشَ يبغى الكمالْ
يقدس الحبَّ ويهوى الجمالْ

فإن أثارتْ فيك بعضَ انفعالْ
فذاك لي حلْمٌ شهيُّ المنالْ

وقد أحسست، وأنا أقرأ، أنها خلقت شاعرة ـ كغيرها من الشعراء الفطريين، ورفدت آلامها وآلام شعبها وآمال مجتمعها شاعريتُها، وزادتها محنة النعيِّ. لكن فقد الولد لم يكن وحده يصنع شعراً، وإلا كانت أمهات العالم جميعا شاعرات، ناهيكم عن أنها قالته فتاة يافعة، وخرجت بشعرها في وقت مبكر. لكن الشعر يرتوي بالآلام، وتمخِّضه الأحزان.

وشاعرتنا شاعرة قضية، يعتريها التفاؤل حيناً والتشاؤم حيناً. فرغم كل صلف الآذان العربية الخليجية وتصامها عن دعواتها الإصلاحية تظل الشاعرة متفائلة. فلابد لليل الحاضر من فجر مشرق. فهي تأمل بظهور بطولة عربية تجمع الآفاق الشتات، وبإشراقة النور على الأمة العربية، وبالخير العميم:

أنتظرُ المهديَّ يأتينا
وفي عينيْهِ عصفورٌ يغنِّي..
وقمر..
وتباشيرُ مطر..
سوف أبقى دائماً
أبحثُ عن صفصافةٍ .. عن نجمةٍ..
عن جنةٍ خلف السرابْ

ولاشك أن من يقرأ دواوينها يعجب من صراحتها لتصوير واقع تأمل أن يُنقَذ، بعد أن بلغ حافة الهاوية وشفا الحفرة. ويعجب أكثر من فتاة عاشت في دائرة النفط، وأدركت أخطاره على جنسها فصرَّحت. صرحت هنا كما صرحت في حبها وعواطفها. ولايعني هذا أنها نسيت بيئتها الأرستوقراطية، أبداً. والدليل على ذلك نداءاتها المستمرة بـ «يا أميري».. «ياسيدي»:

يا أميري.. أنت يامَن كنتَ للروح شَقيقْ
أنت ياكَنْزي من الرحمة والحُب الرَّقيقْ

ولكنها إن وافقت على ما أنعم الله على ذويها بهذه النعمة الربانية فلكي تُبنى بها

حضارة ثابتة، وتوجه الأنظار إلى العلم الراسخ. وهذا مافعلته، فحازت أعلى الدرجات العلمية.

ومن يقرأ ديوانها «فتافيت امرأة» يحس بأنه أمام شاعرة مجددة ووجدانية، أمام شاعرة عنيدة، تحمل رسالة إصلاحية في حق المرأة المهضوم أمام الرجل الخليجي الذي يغمطها هذا الحق. ورسالتها النضالية تنطلق إلى أكثر من دائرتها، فتفسح لشاعريتها التعبير عما يعتلج في أرجاء الوطن العربي من قضايا تهمُّ الأمة. وهي في الاثنتين شديدة الجرأة، عنيفة المعالجة.

ولم نجد نافذة في شعرها تمدح فيها أحداً. وهذه سنة شعراء القضية، إضافة الى شخصيتها العنيدة، وزهوها بعطائها. وهذا ما جعل عاطفتها صادقة صدقَ أدلتها. وعاطفتها ثائرة هادرة غالباً، ولكنها قد تهدأ وتلين، إنما ليس عن إعياء. وتناوب الموج العاطفي يبدو في كل قصائدها، بل في القصيدة الواحدة.

وهذا ماجعل أبيات القصيدة تنساب لديها بسخاء، فتتركها على حريتها وأريحيتها، منسجمة مع عاطفتها، فتطول القصيدة أو تقصر بحسب الموضوع الموحَى إليها. فتأتي القصائد حديثة حرة حيناً، وعمودية كلاسيكية حيناً. ولكنها في كل حال موزونة، موضونة، متراصَّة، متماسكة.

لكنها قد تصطنع الأبيات أحياناً، فيحس القارىء بأن الحاجة مستها إلى التريث بحثاً عن الجملة المناسبة أو الألفاظ المطلوبة للمعنى الدافق. وهذا ماجعل بعض الجمل تطول. فيرد فعل الشرط في بيت، وتنساب الشاعرة مع المعاني عدة أبيات. حتى إذا تنبهت إلى ضرورة ذكر جوابه جاء بعد بضعة أبيات. ولعل قضية الإقناع وبسط الموضوع يضطرها الى هذه الطريقة، فيصيب النص، ويربك القارىء. فانظر معي الى هذه القطعة، لترى موقع «لو» وراقب متى يأتي جوابها :

ياحبيبتي، لو فَرشتُ الدربَ من أجلك زَهْرا
وملأتُ الجوَّ اضواءً وألحاناً وعطرا
ومددتُ الهُدْبَ في غابةِ أحلامك جِسرا
ونسجتُ الأمسياتِ البيضَ للأشواقِ وَكْرا

هانئاً يقطُرُ طِيباً . . دافئاً ينبِضُ سِحرا
لبَدا الكونُ لنا من نفحةِ الفردوس قَصرا

ومثل هذا متكرر في ديوانها «أمنية» بخاصة. نكتفي بالإشارة.

ومما يؤخذ على شاعريتها أنها كثيرة التكرار لبعض الأفكار. فهي إن أحَسَت بنجاح المعنى في قَصِّ شعرها عمدت إليه ثانية؛ مرة قصته حزناً وغيرة، ومرة شوقاً وحيرة. وهي إن صورت حبيبها يدخن لُفافة عادت إليه كرَّة أخرى؛ ففي الأولى هي التي طلبت منه أن يدخن لتنعم، وفي الثانية صورته وهو في نشوته يدخن، وهي تلاحقه بهذه النشوة :

لهْفَ نَفسي، وهو في ضَوءِ الغُروب الأُرجواني
ينفثُ السيجارةَ الحسناءَ في جوِّ المكانِ

ومثل هذا التكرار كثير في مخاطبتها للرجل دفاعاً عن المرأة. ولكنها في مثل هذه الحال تأتي المعاني المكرورة من القضية التي تعالجها، والتي خصصت رسالتها دونها.

وقد أحسنت الشاعرة في ختم القصيدة ختماً متميزاً. لأن من جمال القصيدة أن يُحسن الشاعر الانتقال من فكرة إلى فكرة، أو يحسن «قفلة» القصيدة. وهذا ما أجادته الشاعرة في كثير من قصائدها. وفي المثال التالي ختام موفق لقصيدتها الجميلة «ڤيتو على نون النسوة» :

وأعرف أن الرعودَ ستمضي . .
وأنَّ الزوابعَ تمضي. . .
وأن الخفافيش تمضي. . .
وأعرفُ أنهم زائلونَ
وأني أنا الباقيةْ. . .

ولاشك أخيراً أن الشاعرة قرأت شعر بدر شاكر السياب ونازك الملائكة، لكنها تمذْهبت بمدرسة نزار، حيث تركت بصماتها على عدد من أشكال القصيدة ومن مشاهد الغزل الحواري، من غير أن تكون منساقة إلى حرفية المدرسة.. فشخصيتها متميزة وأنثويتها مجلوَّة الأداء، سخية العطاء.

بين الواقع والخيال :

رغم أن الشاعرة ذكرت ـ غير مرة ـ أن شعرها من كوامن الخيال، وليس من الواقع، كقولها:

وأنا شاعرةٌ ذاتُ خيالْ
ينشُدُ الحسنَ ويستوحي الجَمالْ
ربما ألفيتُهُ في وردةٍ
في كتابٍ .. في دعاءٍ .. في ابتهالْ

فإن الشاعرة تعلن أنها سرٌّ غامض وطيفُ آلٍ لايبدو منه إلا الأسى:

أنا وهمٌ .. أنا طيفٌ من سرابْ
أنا سرٌّ مغلقٌ خلفَ حِجابْ
ملأ الدهرُ شَبابي شَجَناً
فكأني لم أعِشْ عهدَ الشبابْ

رغم هذا كله ـ ورغم مالم نذكره ـ تظل سعاد شاعرة واقعية الأفكار والأحاسيس. ربما جنحت إلى الخيال في بعض الصور، ولكنها تستلهم أغلب معانيها من جذورها الخليجية. وكلُّ عواطفها الجياشة منبثقة من جنبات الواقع العربي أو الواقع الشخصي.

فهي إذاً شاعرة قضية، وشاعرُ القضية واقعي، وإن عمد إلى الرمز. وإضافة إلى ماذكرنا في المحاور الثلاثة السابقة مما يدل على براعتها في حصد معانيها من سهول الواقع، فإننا هنا نحب أن نشير إلى واقعيتها الذاتية. فمن أحلى ما أتحفتنا به ماقالته في ابنها الغالي «مبارك» حياً وفقيداً. وهل يقدر امرؤ أن يتحدث عن ابنه في الخيال؟ عدا الطموحات والآمال طبعاً.

وتحدثنا الشاعرة كيف أنها أخذت ابنها المبارك إلى المدرسة لتسجيله ـ لأول مرة ـ وماذا لقيت هناك بكل واقعية وبساطة. وقد أجادت تصوير المدرسة، ومايرتفع فيها من أصوات ضحك وبكاء:

هذه دارٌ واسوارٌ وروضٌ واريجْ
وصدىً من ضحكاتٍ وصراخٍ وضجيجْ
كلُّ أمٍّ في يديْها فِلذةٌ من كبدِ
وأنا أرنو إليهنَّ ، وجَنْبي ولدي

وتدخل في واقعية حوارية، تجري عادة لدى اللقاء الأول :

سألوني : ما اسْمُه؟ عاشَ وأُوفي وتباركْ
قلتُ : هذا ولدي، مَعقد آمالي مُباركْ

وإذا تركنا هذه القصة الواقعية، وانتقلنا إلى قصيدة أخرى تبين لنا واقعية أكثر، وذلك في قصيدتها «قصة شعري». ونفهم منها أن شعرها كان طويلاً، وأن محبوبها يحبه هكذا. لكنها في ساعة غضب قصته، قصفت سواده، وفدت بما كان حبيبها يحب:

شَعري الذي تعبدُه مهدِّلا وثيرا
عاندتُ نفسي وغزوْتُ ليلَهُ الأثيرا
قصفتُ أمسياتِهِ . . جعلتُه قَصيرا

ولما كان محبوبها يعبر عن إعجابه بشعرها الطويل دائماً، فقد أمعنت في وصف جماله، لتبين أهمية الحدث الذي سيفجؤه. لكنها تضايقت من المحبوب، فعمدت إلى إغاظته بقصه. ولو لم يكن ضيقها كبيراً لما فقدت شيئاً من جمالها نكايةً به. وهل أكبرُ على المرأة من الغدر؟ اسمعها :

ألم أكنْ غرامَك الأولَ والأخيرا؟
وهل تحبُّ أن أقولَ نبأً خطيرا؟
قصصتُ شَعري إذ عرفتُ غدرَكَ الكبيرا
قصصتُهُ إذ لم أجدْ حباً به جَديرا

والواقعية التي نتحدث عنها جعلت منها شاعرة قصصية. فهي تروي الواقع

بعرض قصصي. صحيح أن ماذكرناه لم يكن قصة محكمة، لكنها في مشاهد أخرى تلمع إنسانيتها الشاعرة، كما في قصة آسية لامرأة تغسل الثياب بأجر، والمعروف أن الغسالة ـ قديماً ـ حرفة المرأة الفقيرة المعدمة. وتتفاعل إنسانية سعاد مع الحدث، فتصغي إلى حديث هذه الإنسانة المعنَّاة، وهي في عقدها الثالث، تحكي لها كيف أنها اضطرت إلى العمل لأن زوجها مريض، وهي مسؤولة عن إعالة ستة أطفال. وتبدع الشاعرة في عرضها القصصي الإنساني، غير ناسية مفاهيم القصة الحديثة وأركانها من حدث وعقدة وحوار وأبطال :

وقفتْ تقصُّ عليَّ قصَّتَها ... وبكفِّها الصابونُ والماءُ
قالتْ : عيالي ستَّةٌ ، ولهُم ... في العيش حاجاتٌ وأعباءُ
وأبوهُمو أزرى الهُزالُ بهِ ... ومشى بصُلب عُروقهِ الداءُ
أشقى لأدفعَ عنهُمو قَدَراً ... لاشئتُ قوتَهُ ولاشاؤوا

كما أن الشاعرة أدركت أن الوصف من عُمد القصة، فلم تتوانَ عن وصف المرأة وحالها وزمان عملها. ولعل إنسانيتها وآلامها جرّاها إلى الإصغاء. ولم تكن كأولئك الأغنياء الذين لايعبؤون بمثل هذه الشرائح البشرية. وقد تفاعلت مع آلام المرأة، وشاركتها أحزانها وواستها معنىً ومادة:

بَيني وبينَ الله مابَذلتْ ... كفِّي لها لتبدِّد الياسا
وشَعرتُ حين رأيتُ بسمتَها ... بسعادتي فِكراً وإحساسا

وتبلغ سعاد الذروة الفنية في واقعيتها بقصيدتها «أم الشهيد». ونحسب أن فيها ـ هذه المرة ـ بعض الخيال. فهي تحكي لنا قصة أم مفجوعة بمُزعة أحشائها ليلة العيد (زيادة في الألم). وتبدأ الشاعرة بوصف المرأة شكلاً وحالاً، مُضفيةً على الحدث مايُعين على التصور :

رأيتُها ملتفَّة بالسوادْ ... في وجهها مَلحمةٌ من حِدادْ
مقروحةَ الجفنِ على فِلذةٍ ... من كِبْدها الحرَّى طواها الرمادْ

وتسترسل الشاعرة في وصف الحال البائس، لتدخل إلى عقدة القصة، حين تسأل أم الشهيد عن حال ابنها، فقالت:

سألتُها عنه فقالت : فتًى ... ملتهبُ العزمِ كريمٌ جَوادْ
لمَّا دعا للثأر داعي الحَمى ... وهبتُه لله ربِّ العبادْ

والواقعية التي نتحدث عنها، والروح القصصية التي نشير إليها هي من مِيزات الشاعرة في عرض أغلب قصائدها، وإن لم تكن القصيدة ذات روح قصصية، إنما تعمد الشاعرة إلى هذه الطريقة لتقرب العرض والفكرة من أذهان القراء.

وهذه الروح القصصية، ذات العبرة الاجتماعية أو الوطنية، جرت الشاعرة إلى استخدام الحكمة والموعظة نتيجة ذلك الحدث. وهي تعرض الحكمة ـ على قلتها ـ حيناً في ثنايا قصتها، كما في قصيدتها «ارفعي المشعل»:

هذه الأيامُ لاتعرفُ معنًى للسُّباتْ
والذي يغفلُ تَطويهِ رياحُ الذكرياتْ

وحيناً في ختامها، كما في «قدر»:

ورفضتُ القدَرَ المكتوبَ لي عَبْر السِّنينْ
غير أنّا لانَرى ماخطَّه فوقَ الجبينْ

الصورة الواعية :

يحتاج نقاد الشعر الحديث الى استخدام الآلات الحديثة مثل «الكرونومتر: آلة قياس الزمن» لإحصاء الصور التي يوظفها الشعراء للتعبير عن معانيهم ومقاصدهم. فصور الشاعر الكلاسيكي معدودة في القصيدة الواحدة، وإن هو أكثر منها عيب عليه. أما في الشعر المعاصر ـ ولاسيما الخصب والرمزي منه ـ فإن الكمبيوتر وحده الذي يستطيع تحديد عدد الصور، أو المكرر منها، أوالمبتكر، في كل ديوان. وكذا فرز الصور ذات اللوحات التعبيرية، والصور الحركية، والصور المنبثقة عن الألفاظ الموحية.. والمشكلة عند سعاد تتبدَّى في حجم تخزينها للصور. ولقد حاولتُ إحصاءها فعِييت، وسيعيا معي من يريد مشاركتي في هذا الإحصاء، إلا من درس في «مؤسسة القراءة السريعة» في يوكوهاما.

ولقد امتازت سعاد بابتكار كثير من الصور النابعة من بيئتها الخليجية، أو من رحلاتها العربية والغربية، أو من دراساتها الاقتصادية الموسَّعة. وساعدتها شخصيتها العنيفة وعواطفها الصادقة على صب سبائك الصور في قوالب الجدة. إنها لاتُلملم الصور القديمة، ولاتموِّه المعاني الحديثة. وهذا مادعاني إلى وصفها في مطلع كتابي بالشاعرة الصنَّاع. فانظر إلى صورة متنافرة بين العنف في الحب والمغالاة في الإهمال:

يا حبيبي :
إنني دائخةٌ عِشقاً
فلَمْلِمْني بحقِّ الأنبياءْ
أنتَ في القطبِ الشماليِّ
وأشواقي بخطِّ الاستواءْ

وتتخذ سعاد الهاتف وسيلة لعرض أفكارها وتبيان أشواقها الواصلة إليها عن

طريقه. وتوفَّق الشاعرة بصورتها إذ تخاطب الهاتف وهي تتوقع رنينه لكنه صامت. وفي هذه القصيدة لاتدع القارىء يستعرض الصور المتعددة، بل تُشعره بصورة كاملة لإنسانة تجالس الهاتف الأسود وتخاطبه.. فنتصور الموضوع وكأنه أمام أنظارنا:

أيُّـهـا الأبـكـمُ الأصـمُّ تـكـلَّمْ وتـرنَّـمْ، ولاتـحـطِّمْ غُـروري
أنـا عـانـقتُ فـيـكَ لـهـفـةَ روحي أنـا قـبَّـلتُ فـيـك فـيضَ شُـعـوري

وهي حين تريد عرض دموعها على فقيدها المبارك تقول:

ويسجُدُ صفُّ دموعي لربِّي
وأرجعُ في نورهِ للصَّفاءْ

ومن صورها الجميلة ما أتت به في قصيدتها «ليتني» بمجموعة من الأماني. فهي مرة تتمنى أن تكون لُفافة بين شفتيه:

ليتَني سيجارةٌ في ثغركَ الحلوِ الرَّجاءْ
تَتفانى فيكَ لَثْماً كلَّ صبحٍ ومساءْ

وأخرى رداء يلف جسمه:

ليتَني كنتُ على قامَتِك الفَرعا رداءْ
أحتوي عودَك في الأعماقِ صَيفاً وشتاءْ

إلى ليتاتٍ عديدة، خلف كل واحدة صورة جميلة تمتاز بالجدة والحركة. وصورة أخرى ذات حيوية، في قولها:

لبستُ ثوبي المشغولَ بخيوط اللهفة
وتكحَّلتُ بنورِ عينيْك
وزرعتُ في شعري زهرةَ برتقالِ

وهي تستخدم الصورة لتعبر عن وضعها القلق الكئيب في رحيل محبوبها:

أتتركُ العصفورَ في وَحْدتهِ مُقيَّدا
وأنتَ مَن كنتَ له على الزمانِ مُسعدا؟

ويمتاز كثير من صورها بالحركة :

وقد نَصبَ البدرُ أُرجوحةً من النور ترفعُنا للسَّماءْ

ولابد لمن يكثر الصور في شعره، ولمن يعالج قضايا محددة، من أن يقع في مغبَّة تكرار الصور. ويبرز هذا التكرار في ديوانها «إليك ياولدي»، لأنها خصَّته كله تقريباً في الحديث عن ولدها الفقيد. وتضطرها وحدة الموضوع إلى استرجاع بعض الصور. لكن هذا التكرار موجود في الدواوين الأخرى كذلك. كتشابه صورة عبد الناصر البطل في قصيدتها «عندما رحل عبد الناصر» و«من امرأة ناصرية إلى جمال عبد الناصر». إلى غير ذلك من الصور المكررة في : الدموع، والبشر، والإحساس بالغربة، ووصف المشاعر، وبعض الرموز كشهرزاد. ومن البديهي أن تشابه الأفكار استدعى وجود مثل هذا التكرار. ولعل الشاعرة تعمد في مستقبلها الأدبي إلى تلافي مثل هذا القصور.

الرومانسية المتفاعلة

والرومانسية تعتمد إشراكَ الطبيعة بأحاسيس الشاعر، وهذا يجرها إلى استخدام عدد كبير من الصور المتلاحقة أو المتلاحمة، المتحركة أو الثابتة. ولقد كانت الطبيعة ملاذ الشاعرة للتعبير عن آمالها وآلامها. فهي حين تتكلم عن عبد الناصر، وتريد التعبير عن عطاء هذا القائد الفذ تستلهم الطبيعة، تستَمتحها الصورة السخية، فتقول :

كان هو المهديَّ في خَيالنا
وكان في معطفِه يخبىء الأمطارْ
وكان إذ ينفخُ في مزمارِه . .
تتبعُه الأشجارْ
وكان في جبينِه سنابلٌ وحنطةٌ . .

ويزداد اندماجها بالطبيعة مع تعبيرات الأسى في تصويرها لآلامها بفقد ابنها

وتنتحرُ الشمسُ حُزناً علينا وتبكي المَصِيرا
وتسقطُ في البحر هَوْناً وتجمُدُ دفئاً ونورا
كأنَّ غروبَ هوانا لكلِّ غروبٍ نَذيرا

وهي غالباً ماتعرض الطبيعة بشكلين؛ شكل بهيج وسعيد، وشكل سرعان ماينقلب مع أحزانها. فالطبيعة في شعرها جزء منها، ومَعلمة من نوافذ شاعريتها، ونبضات أحاسيسها. فقد ذبلت الطبيعة، ورحلت الأطيار بوفاة ابنها :

وذوى الوردُ من الربوةِ والعصفورُ طارْ
وغذا الفردوسُ من بعدك تيهاً وقفارْ

وكذا الحبيب، إن رحل عنها فلا روضَ زاهٍ ولاربيع آتٍ . . وتدلهمُّ الدنيا في ناظريها :

وأرى الأشجانَ ولَّتْ ... والربيعَ الطلقَ آبْ
والعناقيدَ تدلَّتْ ... بأباريقِ الشرابْ
والأزاهيرَ تحلَّتْ ... بأفانينِ الثيابْ

لكن هذه الصور الطبيعية يعتريها أحياناً بعض التكرار. فصورة الشمس التي تشرق تكررت مراراً. فقولها :

لن تشرقَ الشمسُ علينا ، ولن ... يطلعَ في ليلِ هوانا القَمرْ

شبيه به قولها

إنَّ غداً لن تشرقَ الشمسُ عليه أبدا

وقولها :

ولن يكونَ الجوُّ إلا لظًى ... ولاسَنَى الأنجمِ إلا شررْ

شبيه به قولها :

سيلبسُ النورُ إذا غبتَ ستاراً أسودا

الرمز الادائي :

ويستند الشعر الحديث إلى الرمز في الأداء. والرمز فن من فنون التعبير الخاص. يجيده المثقفون من الأدباء، تمويهاً لما يريدون عن طريق غير مباشر، أو اختصاراً لما يحتاج إلى تفصيل. فينجح في أدائه بعضهم ويخفق آخرون. والرمز ثقافة عالية توضح مدى معرفة الشاعر، وتزيد من معلومات القارىء. فإنْ أكثر الشاعر منه عِيبَ عليه، وكذلك إن أمعن في إبعاد المعنى المقصود. ولقد عانيتُ كثيراً حين درست شعر بدر شاكر السياب لبعد غَور رموزه. ويُقبل الرمز ـ ويُقبَل عليه ـ إن كان قريب الفهم أو لم يكن كثيراً.

والرمز وسيلة من وسائل التعبير المهمة جداً عن سعاد. ولانكاد نقرأ قصيدة خالية من بعض الرموز، لكنها، مع ذلك، أقل من غيرها وأقرب إلى المعنى كالسياب والبيَّاتي ونزار. كما أنها قد تتصرف بمعنى الرمز المتعارف عليه، بل إنها قد تؤديه بعدة معان، يفهم مقصوده من النص، كرمز المطر. فهي تستخدمه بمعنى الخير حيناً، وبمعنى الحزن والمأساة حيناً آخر، في حين أنه بمعنى الخير والعطاء. كقولها:

أجلْ . .
أمطري . . أمطري ياسَماءُ
فمأساتُنا في الليالي سَواءُ

ورموزها تكثر في شعرها الوطني وفي شعر المعركة ضد الرجل. ومن رموزها «المهدي» والذي تستخدمه حيناً بمعنى البطل العام وحيناً بمعنى بطل الأمة العربية. و«القمر» بمعنى النور. و«صلاح الدين» بمعنى فلسطين. .

جداولها الثقافية :

ذكرنا قبلاً ثقافة الشاعرة العالية، واشتغالها بالسياسة والاقتصاد، ومطالعتها الواسعة، ورحلاتها المتكررة.. وهذا كله أغنى أفقها الفني، وأضفى على قصائدها بعض الدسم المُجدي. ولاشك أن الشاعر المعاصر ـ والقديم ـ يحتاج إلى روح شاعرية وخيال خصب. ويلي ذلك ثقافة ترفد هذه الشاعرية وهذا الخيال. وتزداد أهمية الثقافة في العصر الحديث، ليتمكن من إرواء نصه من مَعين ثرٍّ يُبرز أهلية الشاعر لخوضه هذا العالم الشعري الجديد.

والشاعرة تلتقط من تراثها مُشرقات الأحداث ومشرِّفات الصفحات غالباً، وتجعل منها رمز شعرها؛ تنقله من ماض سحيق إلى مستقبل عريق. فانظر إلى هذه القطعة المعبرة عن نضال أرض عربية واحكم على تزاحم الشريط الثقافي العام:

تمرُّ شعوبٌ ، وتمضي قبائلْ
فحيناً.. أنا لوحةٌ سومريةْ
وحيناً.. أنا كرمةٌ بابليةْ
وطوراً أنا رايةٌ عربيةْ
وليلةُ عرسي هي القادسيةْ

وثقافتها التاريخية تجعلها تكثر من عرض صورها التاريخية؛ من كل فصل لقطة تحير القارىء وتطوف به من مرحلة إلى مرحلة. وقد نراها تغرف من التراث خبط عشواء أحياناً.

وقرطبةَ التي تبكي قبابُها في الليل
بدموعٍ عربيةْ..
يحكونَ عن المعجزاتِ السبعِ
وينسون أنك مُعجزتي
وعن عصرِ المأمونِ الذهبيْ
وينسونَ..

وقد تنهل من التاريخ القديم :

أنا لا أطمح في بابلَ أو إيوانِ كسرى

أو تجمعٍ في معجمها الثقافي بين الكتب العربية ، والعبرية، واللاتينية..

قرأتُ كل معاجم العشقْ
وكلَّ رسائل العاشقينْ..
قرأتُ «طوقَ الحمامة»..
و«نشيدَ الأنشاد» و«مزاميرَ سليمان»
قرأتُ «أوفيد» و«عيونَ الزا»..

وثقافتها التاريخية تجرُّها إلى التاريخ الغربي المعاصر. فهي تشير إلى الملك جورج الخامس الذي تنازل عن عرشه في سبيل حبه :

قرأتُ عن ملوكٍ تَنازلوا عن عروشهمْ
ليحتفظوا بعرشِ الحب
ياذا الذي علَّمني أبجديةَ الحنانْ

ومشاركتها للقضايا السياسية الراهنة، يجعلها تعرف أحداث الساعة في العالم. فحين تتحدث عن نكبات الأمم التي سببتها سطوة الولايات المتحدة نراها تتحدث عن فييتنام والسود في أمريكة:

انظروا مايصيبُها في فييتنامَ
تَرَوا كيف يصمدُ الضعفاءُ

وانظروا السودَ جائعينَ ولكنْ هُمْ بتأييدِ ربِّهم أقوياءُ

ولو شئنا الاستمرار في عرض جداولها الثقافية لطال بنا الأمر، ولخرجنا عن مبدأ الدراسة، ودخلنا في الاستعراض. ومما نخرج منه في هذه العجالة أن الشاعرة تعتمد كثيراً على المحطات التاريخية والأدبية، القديمة والحديثة، العربية والغربية، الإسلامية وغير الإسلامية، رمزاً أو إشارة.

معجمها اللغوي :

لايظنن ظانٌ أن الشاعر لايبرع في شعره مالم يختص باللغة العربية وآدابها، فأكثرُ شعرائنا اليوم غير مختصين، وكثير منهم علميُّو الاتجاه. ولكنهم يحتاجون إلى مخزون لغوي يتأتّى من كثرة المطالعة والدراسة. وشاعرتنا استطاعت أن توظف معرفتها اللغوية خير توظيف. فقد لمسنا لديها مخزوناً ناضجاً ينضح من معين سخي يناسب كل مقال.

ومع أنها عاشت في رفاهية وثراء فإننا لانجد معجمها اللغوي زاخراً بالبريق والبهاء دوماً. كما أننا لانجد في معجمها عفونة الفقر وأنات المرضى. وإن وجدنا البخور والذهب والمرجان، فلانراها تستخدمها رموزاً للأبّهة بل للصراع.

وهي حين تنتقل إلى قصائد الغربة والحزن تتبدل مفرداتها، وتتوشح جملها بالمناسب اللفظي. فترى الآهات والسواد والكبد الحرى والجفون المقروحة تترى في شعرها «أم الشهيد» و«الغسالة».

وإذا كان حبيبها مسافراً، وكان الخطاب في طريقه إليه صبت في شعرها كلمات معبرة عن وضعها النفسي. فانظر إلى قولها من قصيدتها «خطاب»، ولاحظ اكتناز الألفاظ المعبرة عن الأسى:

أوّاه لو تُدرك هذا العذابْ
وما أُعاني من أسىً واكتئابْ
وأنَّ رُوحي في جوًى واغترابْ

والطبيعة أحد روافد معجمها اللغوي الرئيسي. فنراها تكثر من ذكر: المطر، البرق، البرتقال، الينبوع، البساتين، النوافير، الحقول، البراري، الصحاري، النخيل..

وزرعتُ في شَعري زهرة برتقالِ
وتكثر ألفاظ الطبيعة مع الأحزان :
وتنهّد الزيتونُ مكتئباً، ونوّحت الحمامةْ
واربدَّ جوّي بالغيومِ وأطلق الواشي سهامهْ
وقد تعرض ألفاظ الطبيعة عرضاً جديداً :
أنا شجرة السدر الدائمة الاخضرارْ
وفاكهة النار والنحاسْ
زهرة الحلم والنعاسْ

كما نراها تكثر من صيغة النداء، دلالة على الحركة الأسلوبية الإنشائية والحوارية، فنراها تكثر من : ياصديقي . . أيها السيد . . ياسيدي . . يا أميري. لكن هذه النداءات الأرستقراطية لم تذكرها دوماً في مقام التقدير، فقد استخدمتها أحياناً في مقام السخرية والتحقير. كما أنها تكرر كثيراً بعض الأفعال. من ذلك تكرارها فعل «نسينا» وفعل «ذكرنا» في قولها :

وماذا نسِينا؟ نسينا الزمانَ، نسينا المكانَ ، نسينا الرياءْ
نسينا الحسابَ، نسينا العتابَ ، نسينا العذابَ ، نسينا الشقاءْ
وماذا ذكرنا؟ ذكرْنا الوعودَ، ذكرنا العهودَ ، ذكرنا الهناءْ
ذكرنا الغرامَ ، ذكرنا الهُيامَ، ذكرنا السلامَ، ذكرنا الوفاءْ

ولايعني تكرارها هنا أنها ضيقة الأنفاس اللغوية، بل إن هذا دليل عاطفة وتأكيد في غاية السمو والجَيَشان، وأعلى مراقي النشوة والحبور. وهي لاتستخدم أسلوبها خطابياً تقريرياً دائماً، فالحركة الأسلوبية المتبدلة من النداء إلى الاستفهام، إلى الرفض والاستنكار، مرتكزها في الأداء.

الكلمة الأخيرة :

وبعد . .

تلكُم كانت دراسةً فنية استعراضية صادقة دقيقة لشاعرة صَناع، تفتحت موهبتها من بين رمال الخليج، فنثرت كِنانتها الزنبقية، بأريج شعري أرْيَحي. فأحبها قراؤها بقدر ما أحبها أهلها وأصدقاؤها. وأدت رسالتها الفنية والوطنية خير أداء وأحسن عطاء، في حين أنها مازالت في عقدها الرابع.

ولقد رأيت أن أوفِّي حقَّ شاعريتها التي أثلجت صدري، وحق الكويت التي كرَّمتني وأضافتني تسعين يوماً لاينسى كرم أهلها. وأن أوفي حق صديق أولاني عطفه فأهداني شعرها، وكأنه أدرك غذائي الروحي الذي أرتوي به، وتهدأ نفسي له.

ولقد رأيت شعراً يستحق أن يُولَى العناية بالدرس والنقد بعد أن أجدب كلُّ شيء في أرضنا الأدبية، وجفَّ ضرع الشعر العربي الدسم، وقلَّ ـ مع الأسف ـ متذوقوه. فكانت مخاطبتي لها في أثناء دراستي متمثلةً في شخص كل فتاة عربية، تماماً كما كان خطابها موجهاً لكل عربي خليجي.

وأرجو أن أكون قد وفَّيت ووفَيت.

مختارات من شعر
سعاد الصباح

أنا والغيب :

كَيْفَ يا قَلْبِي تَفرِدْتَ بألْوَانِ العذابْ
واحتملْتَ العيشَ مُرًّا وشربْتَ الكأسَ صَابْ
ولماذا أوْصَدَ الغيبُ بوجهي كُلَّ بابْ
وسقاني الهمَّ واللوعَة من غيْرِ حِسَابْ
ربِّ غفْرَانَكَ إن كُنْت تجاوزت الصواب
وأسأت الظن بالغيب وأخطأت الخطاب
رغم أن النور في أعماق أعماقي مُذَابْ
لم يحرِّضْني ضلالٌ أو يساورْني ارْتيابْ
أو يحركني إلى ذاتِكَ لوْمٌ أو عِتابْ
فأنا مِن حَرَم الإيمانِ في أعلى رحابْ
بيْدَ أني تُهْتُ ياربيَ في درب الشباب
واكتست أجملُ أحلامي بمسودِّ الضَّباب
وذوت بي زهرة العمرِ شجوناً واضطرابْ
يا إلهي هل قضى أمْرُكَ في أمِّ الكتابْ
أن أرى أحلام عمري في رؤى الوهم سراب
وأمانيّ نجوما تائهات في السَّحَابْ
أكذا ينْتَحِرُ العمْرُ وينفَضُّ الشَّبَابْ
وأرى قلبي الذي مازالَ كالبُرْعُم شَابْ
وخيالاتي على الأيام تَهوِي كالشِّهَابْ
يا إلهي كم أناديكَ فَهَلْ لِي من جَوابْ

في طائرة الموت :

صاحَ بي طفلي المفدَّى وهو مخنُوقُ الأنينِ
وَيْكِ أمِّي أدركيني . . ويْكِ أمي انقذيني
أسعفيني بهواءٍ من صمام الأوكسجينِ
وخُذيني في ذراعيك لأرتاحَ . . خذيني
قَرِّبيني . . قبليني . . عانقيني . . . أدفئيني
إنني أشعر بالرعشة تسري في وتيني
أخرجي الحَبَّة من جيبي ، فقد كَلَّتْ يميني
وَضعِيها في فمي عَلَّيَ أشفَى بعد حين
وانزعي ربْطة صدْري، إنها قيدُ سجينِ
الضَّنى فوق احتمالي، فأعينيني . . (أعيني)
قالها ، ثم ارتمى في الأرض كالفرْخ الطعينِ
فارتمى قلبي علَيْهِ في ارتياع وحنينِ
وَلدي . . ياكنْز أيَّامي وَيَا حُلم سنيني
ياشباباً كلما حَدَّقْتُ فيه يَزْدَهِيني
ليت آلامَكَ كانت في كياني تعتريني
آهِ من طائرة الموت التي هزت يقيني
قلتُ للقُبْطانِ عُدْ للأرض، دَعْها تحتويني
عَلَّني أظفرُ فيها بطبيبٍ أو مُعين
ومن الموت يقيهِ ، ومن الهول يقيني
إنني أغرق في بحر من الدمع السخِين
إنني أصرخ من ناري وأهْذِي في أنيني

بعد أن جن جنوني وغدا اليأسُ خدِيني
كم تضرَّعْتُ إلى الله بإيماني ودِيني
أن يردَّ الموت عمن هو تاجٌ لجبيني
وَهْوَ في حضني يداري اليأسَ في عطفٍ وَلِين
وَادِعاً يستقبلُ الموْتَ بقلبٍ مستكين
إيه يادنيايَ زيديني شجىً وامتحنيني
لم يَعُدْ لي في المُنى مَا أشتهي أن تَمْنَحيني
بعدما انهدَّ الذي شَيَّدتُ من حصنٍ حصين
كان في مستقبلي غايةَ مأوايَ الأمين
كان نوري وعزائي من دُجَى ليلي الغبين
كان مالي وثرائي . . كان أحلامَ السنين

غاسلة الثياب

جاءَت تُطالِعُني بشكْوَاهَا
والحزْنُ يصْرخُ في مُحَيَّاها
والماءُ يَقْطُر من أَنَامِلِهَا
وتَكادُ منه تَذوبُ كفَّاهَا
غسَّالةٌ، والفجرُ شاهدُهَا
والماءُ والصَّابونُ خِدْنَاهَا
ومع الأَذانِ تَهُبُّ كادِحةً
تشْكُو إلى الرَّحْمٰن بَلْوَاها
وقَفَتْ تَقُصُّ عليَّ قِصَّتَهَا
وبِكفِّها الصَّابونُ والماءُ
قَالتْ : عِيالِي ستَّةٌ، ولَهُم
في العَيْش حاجاتٌ وأَعْبَاءُ
وأَبُوهُمو أزرَى الهُزالُ بهِ
ومَشى بصُلبِ عُروقه الدَّاءُ
أَشْقَى لأَدْفَعَ عنْهُمو قَدَراً
لاشِئْتُ قَسْوَتَهُ ولاشاؤوا
مَرَّ الشَّبابُ، وكنتُ صَامدةً
وقَضَى، وكنتُ قويَّة البَاع
هٰذي الثَّلاثون الَّتي انْصرمَتْ
في العُمرِ تَحْمل صيْحَة النَّاعي

هَذِي أَنَا ، والبَرْدُ في رئتي
يَغْتَالُ أَوْصَالي وأَضْلاعي
وَيدِي تجفُّ ، كأَنَّما صَهَرتْ
ينبوعَها في نَار أَوْجاعي
بَيْني وبَيْنَ اللَّه مابَذَلَتْ
كفِّي لها لتبدِّد اليَاسَا
وشَعَرْتُ حِينَ رَأَيتُ بَسْمَتَها
بِسَعَادتي فِكْراً وإِحْسَاسَا
لَيْسَ السَّعيدُ مَن اغْتنَى لِيرَى
مَنْ حَوْله يقْضُون أَنْفاسا
إِنَّ السَّعادةَ عِنْد ذِرْوَتِهَا
هيَ أَنْ أَعيشَ لأُسْعِدَ النَّاسا

فرحة العيد

عَيدَي غداً، وأميري ليْس يَنْساهُ
ما أَسْعَدَ العِيدَ باللُّقيا وَحْلاَهُ
هل تُشْرِق الشَّمسُ إلاَّ من مَطَالِعه
أو يَجْمُلُ العِيدُ إلاَّ عِنْد مَرْآه
وقفْتُ في وجْهِ مِرْآتي أُسائلُهَا
بأيِّ ثوب غداةَ العِيد ألقاه؟
وأيِّ لوْنٍ منَ الألْوان يُسْعِدُه
فكلُّ لوْنٍ له في الوَجْدِ مَعْناهُ؟
وأيِّ هَيْئةِ شَعْرٍ أَسْتثِيرُ بها
كوامِنَ الشَّوْق تَطْغَى في حَنَايَاه؟
أأَترُكُ الشَّعْرَ منْثوراً على كَتِفِي
سَنابِلاً في مَهَبِّ الرِّيحِ تغْشاه؟
أم هَلْ أُسَوِّي شَريطاً في جَدَائله
يُلوِّنُ اللَّيلَ في شَعْري ويرْعاه؟
وأيُّ قُرْط عَلَى أُذْنَيَّ يؤْثِرُه؟
وأيُّ عِطْرٍ على خَدَّيَّ يهْوَاه؟
وهل أُكحِّل عَيْني، أمْ تُرَى سهري
قَدْ أَوْدَعَ الكُحل في عَيْني وخلاَّه؟
لاتكتُمي الحقَّ يامرآةُ، واعْترفي
بأي شَوْقٍ سَتلْقاني ذِراعَاهُ؟
وأيُّ دِفْءٍ يُثيرُ النارَ في شَفَتي؟
وأيُّ نَار إذا ما قَبَّلتْ فَاه؟

وكم حِكايَةِ حُبٍّ في جَوَانِحنا
تُروَى إذا عانقَتْ كفِّيَ كفَّاهُ؟
لاترْمُقِيني بإنْكارٍ وسُخْريَةٍ
فثَرْوةُ الحُبِّ أَغْلَى ما ادَّخرناهُ
وشُعْلةُ الحُبِّ كَنْزٌ في ضمائرنَا
ولايُقاسُ بها مَالٌ ولاجَاهُ
لاتَسْأَلي عن ثَرَائي في مَحبَّتِه
لاتَسْأَلي عن مَدَاهُ.. يَعلمُ اللَّهُ

محتوى الكتاب

الشاعرة الصناع	٧
المحور الوطني :	١٣
الوطن الصغير	١٥
الوطن الكبير :	٢٠
فؤاد العرب	٢٠
العراق البطل	٢٣
مصر عبد الناصر	٢٥
المحور الاجتماعي :	٢٩
من هي امرأة الخليج ؟	٣١
معركة العدل النسوية	٣٢
المحور الوجداني :	٤٣
شعر الحب	٤٥
الكآبة والغربة	٥٢
الصمت الملثم	٥٧
عالم سعاد الإبداعي	٦٣
نوافذ شاعريتها	٦٥
بين الواقع والخيال	٧٠
الصورة الواعية	٧٤
الرومانسية المتفاعلة	٧٧
الرمز الأدائي	٧٩
جداولها الثقافية	٨٠
معجمها اللغوي	٨٢
الكلمة الأخيرة	٨٤
مختارات من شعرها	٨٥

جميع الحقوق محفوظة للناشر

شركة النور للصحافة

ص.ب ٥٧٥٥

الصفاة 13058 / الكويت

المؤلف :

- د. محمد التونجي، استاذ الأدب العربي في جامعة حلب
- حائز على شهادة الدكتوراه في الأدب العربي، وشهادة الدكتوراه في الأدب الفارسي.
- له عشرات الكتب، تأليفاً وتعريباً وتحقيقاً وترجمة. وله أكثر من كتاب قيد الطبع.

السعر : دينار كويتي واحد ـ أو مايعادله

مطابع القبس التجارية